

الفصل الخامس

علاج القرآن والسنة للاستعجال

الفصل الخامس

علاج القرآن والسنة للاستعجال

مدخل:

الله -عز وجل- رحيم بعباده فهو أرحم بهم من الوالدة بولدها، رحمته وسعت كل شيء، فهو عز قدره حين قال في كتابه العزيز مخبرا عن خلق الإنسان "خلق الإنسان من عجل"^(١) "وكان الإنسان عجولا"^(٢)..... لم يكن تعالي ليخلق الإنسان بهذه الغريزة المذمومة في أغلب الأحيان -ويتركه حائرا ضالا مضلا ؛ يتخبط في أموره ، يتعجل شره قبل خيره ، وضرره قبل نفعه ، بل لقد أثار له الطريق ، وهداه إلي السبيل ؛ فدعاه إلي التأنى والحلم والصبر؛ ليقضي بهم علي العجلة والسرعة في الانتقام والجزع والهلع ، مبينا له المنهاج ، جاعلا كتابه وسنة رسوله المصطفى -عليه الصلاة والسلام- هداية له في كل طريق مظلم، وسبيل مسدود .

(١) سورة الأنبياء ، من الآية : ٣٧ .

(٢) سورة الإسراء ، من الآية : ١١ .

البحث الأول

دعوة القرآن الكريم والسنة إلى التأني

التأني لغة : مصدر تأني بمعنى الترفق والانتظار ، وهو مأخوذ من مادة (أني) همزة ونون وحرف معتل ، قال ابن فارس : "الهمزة والنون وما بعدهما من المعتل ؛ له أصول أربعة : البطء وما أشبهه من الحلم وغيره ، وساعة من الزمان ، وإدراك الشيء ، وظرف من الظروف ، والتأني هنا مأخوذ من المعني الأول ، يقال للتمكث في الأمور: التأني ، ويقال من الأناة : رجل أني ذو أناة ، والأنا : من الأناة والتؤدة ، ويقال للرجل إنه ذو أناة أي لا يعجل في الأمور ، وهو آن ووقور ، واستأنيت فلاناً أي لم أعجلة ^(١). وفي المصباح : " (تأني) في الأمر تمكث ولم يعجل ، والاسم من أناة على وزن حصاة" ^(٢). قال الراغب : " يقال أنيت الشيء إيناء " أي أخرته عن أوانه ، وتأنيت : تأخرت ، والأناة : التؤدة وتأنى فلان تأنيا ، وأناي يأنى فهو آن أي وقور ، واستأنيتّه : انتظرت أوانه" ^(٣). ويستخلص من هذه الأقوال اللغوية أن مادة التأني تدور حول معنى الترفق ، التمهّل ، التريث ، التّبين ، التثبّت .

التأني اصطلاحاً : لم يعرفه العلماء تعريفاً اصطلاحياً ، ولكن يمكن استنباطه من المعني اللغوي فنقول : هو: عدم العجلة في طلب الأشياء ، والتريث والتمهّل والترفق عند تحصيلها.

دعوة القرآن والسنة إليه :

حث القرآن الكريم والسنة المطهرة علي التأني في الأمور والترفق فيها ... ولقد ضرب لنا المولي -ﷺ- أعظم الأمثلة في الدعوة إلى التأني ، وهو خلق السموات والأرض في ستة أيام ، حيث خلقهما الله -ﷻ- في هذه المدة ؛ ليعلم عباده التمهّل وعدم الاستعجال . قال تعالى : "إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام" ^(٤) فخلق السموات والأرض في هذه المدة ؛ ليعلمنا حسن التثبّت في الأمور والتأني عند العمل وترك الاستعجال ، فالمولي -جل شأنه- قادر علي خلق السموات والأرض في أقل من لمح البصر ، ولكنه خلقهما في هذه المدة ؛ تعليمًا وإرشادًا إلي التثبّت في الأمور والتأني فيها.

ولقد وضح لنا الإمام القرطبي تلك الحكمة فقال : "وذكر هذه المدة ولو أراد خلقهما في لحظة لفعل ، إذ هو القادر علي أن يقول لهما كونا فتكونان ؛ ولكنه أراد أن يعلم العباد الرفق والتثبّت في الأمور ؛ ولتظهر قدرته للملائكة شيئاً بعد شيء ...، وحكمة أخرى خلقهما في ستة أيام ؛ لأن لكل شيء عنده

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١/١٤١ ، ١٤٢ بتصرف كتاب الهمزة ، باب الهمزة والنون وما بعدهما في الثلاثي ، دار الجبل بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ ، ١٩٩١ م .

(٢) المصباح المنير ١/٢٨ ، كتاب الألف.

(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني ، ص ٢٩ ، كتاب الألف مادة (أني) .

(٤) سورة الأعراف ، من الآية: ٥٤ ورد هذا الجزء من الآية في أكثر من موضع في القرآن وهي :سورة يونس ، الآية: ٣ ، سورة هود ، الآية: ٧ ، سورة الفرقان ، الآية: ٥٩ ، سورة ق ، الآية: ٣٨ .

أجلا ، وبين بهذا ترك معالجة العصاة بالعقاب ؛ وهذا كقوله : " ولقد خلقنا السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب { فاصبر على ما يقولون^(١) } بعد أن قال " وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا^(٢) " (٣). " فأخبرهم بأنه قد أهلك من المشركين به ، والمكذبين لأنبيائه من كان أقوى بطشا من مشركي العرب ، إلا أنه أمهل هؤلاء لما فيه من المصلحة ، كما خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام متصلة ، لا لأجل لغوب^(٤) لحقه في الإهمال ، فهو -ﷺ- قادر على إيجاد جميع الأشياء دفعه واحدة ، لكنه جعل لكل شيء حدا محدودا ، ووقتا مقدرًا ، ثم لما بين تعالى أنه إنما خلق العالم لا دفعة ، ولكن قليلا قليلا قال بعده (فاصبر على ما يقولون^(٥)) من الشرك والتكذيب ، ولا تستعجل لهم العذاب ، بل توكل على الله ، وفوض الأمر إليه ، وهذا معنى ما يقوله المفسرون من أنه تعالى إنما خلق العالم في ستة أيام ؛ ليعلم عباده التفرق في الأمور ؛ والصبر فيها ؛ ولأجل أن لا يحمل المكلف تأخير الثواب والعقاب على الإهمال والتعطيل ، ومن العلماء من ذكر فيه وجهين آخرين :

الوجه الأول: أن الشيء إذا أحدث دفعة واحدة ثم انقطع طريق الإحداث ، فلعله يخطر ببال بعضهم أن ذلك إنما وقع على سبيل الاتفاق ، أما إذا حدثت الأشياء على التعاقد والتواصل مع كونها مطابقة للمصلحة والحكمة ، كان ذلك أقوى في الدلالة على كونها واقعه بإحداث محدث ، قديم حكيم ، وقادر عليم حليم.

الوجه الثاني: أنه قد ثبت بالدليل أنه تعالى يخلق العاقل أولا ثم يخلق السماوات والأرض بعده ، ثم إن ذلك العاقل إذا شاهد في كل ساعة وحين حدوث شيء آخر على التعاقد والتوالي ، كان ذلك أقوى لعلمه وبصيرته ؛ لأنه يتقرر على عقله ظهور هذا الدليل لحظة بعد لحظة ، فكان ذلك أقوى في إفادة اليقين^(٥). ويستخلص مما سبق الحكمة في خلق السماوات والأرض في هذه المدة دون خلقها دفعة واحدة:-

١- ليعلم عباده التفرق و التأني في الأمور كلها .

٢- لبيان قدرته تعالى وعظمته -ﷻ-.

(١) سورة ق ، الآية: ٣٨ ، وجزء من الآية: ٣٩ . وسبب نزول هذه الآية ماروى عن ابن عباس ، أن اليهود أتت النبي ﷺ - فسألت عن خلق السماوات والأرض ، فقال : (خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق السماوات يوم الأربعاء والخميس ، وخلق يوم الجمعة النجوم والشمس والقمر) . قالت اليهود : ثم ماذا يا محمد ؟ قال : (ثم استوى على العرش) . قالوا : قد أصبت لو تمت ثم استراح ، فغضب رسول الله -ﷺ- غضبا شديدا فنزلت ، أسباب النزول للواحدي ص ٢٨٢ .

(٢) سورة ق ، الآية: ٣٦

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد الرابع ٧ / ١٤٠ / ط . دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ١٤٠٨ ، ١٩٨٨ / وينظر فتح القدير للشوكاني ٢ / ٢١١ .

(٤) لغوب : تعب شديد ، إعياء (المنجد في اللغة العربية المعاصرة ص ١٢٨٨ ، دار الشروق ، بيروت .

(٥) مفاتيح الغيب للإمام الرازي المجلد السابع ١٤ / ٨٢ بتصرف يسير .

- ٣- لبيان أن كل شيء عنده بمقدار معلوم وأجل محدود .
- ٤- زيادة اليقين حتى لا ندع مجالا للشك والريب في خلقه .
- ٥- ليعلم رسوله -ﷺ- الحلم والصبر على أذى المشركين فلا يستعجل عقابهم.

وإذا كان الله -ﷻ- قد تمهل في خلق السموات والأرض وهو القادر على كل شيء ، فما بالنا نحن ونحن العاجزون عن بلوغ تلك القدرة !! كما حث النبي -ﷺ- على التأني بل وجعله جزء من النبوة ، قال رسول -ﷺ- : " السمات (١) الحسن والتؤدة (٢) والاقتصاد (٣) جزء من أربعة وعشرين جزء من النبوة " (٤). يريد -ﷺ- أن هذه الخصال من شمائل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- وأنها جزء من أجزاء فضائلهم ، فافتقدوا بهم فيها ، وتابعوهم عليها ، وليس معناها أن النبوة تتجزأ ، ولا أن من جمع هذه الخصال كان نبيا ، ويحتمل أن يكون معناه أن هذه الخلال مما جاءت به النبوة ، ودعا إليها الأنبياء ، وقيل معناه : أن من جمع هذه الخصال لقيه الناس بالتوقير والتعظيم وألبسه الله لباس التقوى الذي ألبس أنبياءه -عليهم الصلاة والسلام- فكانها جزء من النبوة (٥).

كما قال رسول الله -ﷺ- للأشج (٦) : "إن فيك لخصلتين يحبهما الله : الحلم والأناة" (٧). قال الإمام النووي : "الحلم " العقل وأما "الأناة " فهي التثبت وترك العجلة ، وسبب قول النبي -ﷺ- ذلك ما جاء في حديث الوفد أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي -ﷺ- وأقام الأشج عند رحالهم ، فجمعها وعقل ناقته ، ولبس أحسن ثيابه ، ثم أقبل إلى النبي -ﷺ- وأجلسه إلى جانبه ، ثم قال لهم النبي -ﷺ- : "تبائعون على أنفسكم وقومكم " فقال القوم : نعم ، فقال الأشج : يا رسول الله ، إنك لم تزاوِل الرجل عن شيء أشد عليه من دينك ، نبائعك على أنفسنا ، وترسل من يدعوهم ، فمن أتبعنا كان منا ، ومن أبى قاتلناه ، قال :

- (١) أى السيرة المرضية والطريقة المستحسنة ، وقيل سمت الطريق ويستعار لهيئة أهل الخير . (تحفة الأحوذى ١٥٠/٦)
- وفي الفائق ، سمت ، أخذ المنهج ولزوم المحجة . (الفائق فى غريب الحديث ١٩٨/٢ ، لمحمود بن عمر الزمخشري ، دار المعرفة ، لبنان ، الطبعة الثانية تحقيق على محمد البجاوى ، ومحمد أبو الفضل إبراهيم ..
- (٢) بضم التاء وفتح الهمزة أى التأني فى جميع الأمور (تحفة الأحوذى ١٥٠/٦) .
- (٣) أى التوسط فى الأحوال والتحرز عن طرفي الإفراط والتفريط . (تحفة الأحوذى ١٥٠/٦) .
- (٤) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى التأني والعجلة ٣٦٦/٤ - ، رقم الحديث (٢٠١٠) عن عبد الله بن سرجس المزني . وقال أبو عيسى هذا حديث حسن غريب . دار الحديث القاهرة .
- (٥) تحفة الأحوذى ١٥١/٦ .

- (٦) المنذر بن الحارث بن زياد بن عصر بن عوف بن عمرو بن عوف ، وفد إلى النبي فى وفد عبد القيس (أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، لـ عز الدين بن الأثير ١٣٥/١ ، ١٣٦ ، دار الفكر ١٤١٤ هـ ، ١٩٩٣ م) .
- (٧) أخرجه مسلم فى صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب الأمر بالإيمان بالله تعالى ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه والسؤال عنه وحفظه وتبليغه من لم يبلغه ٤٨/١ ، كما أخرجه مطولا من حديث أبى سعيد الخدرى ، نفس الكتاب والباب ٤٨/١ ، كما أخرجه الترمذي كتاب البر والصلة ، باب ما جاء فى التأني والعجلة ٣٦٦/٤ ، رقم الحديث (٢٠١١) عن ابن عباس وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح غريب .

"صدقت إن فيك خصلتين... الحديث ، قال القاضي عياض^(١):" فالأناة تربصه حتى نظر في مصالحه ولم يعجل"^(٢).

فالعجلة من الشيطان وصدق رسول الله ﷺ -حيث قال : "التأني من الله والعجلة من الشيطان وما أحد أكثر معاذير من الله وما من شيء أحب إلى الله من الحمد"^(٣). وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ -قال : "الأناة من الله ، والعجلة من الشيطان"^(٤).

قال الإمام المناوي : " التأني من الله " أى مما يرضاه ويثيب عليه ، " والعجلة من الشيطان " أى هو الحامل عليها بوسوسته ؛ لأن العجلة تمنع من التثبت والنظر في العواقب"^(٥) يقول ابن حجر: "وإنما كانت العجلة من الشيطان ؛ لأن عندها يروج شره على الإنسان من حيث لا يشعر؛ بخلاف من تمهل وتروى عند الإقدام على عمل يريد فيه تحصيل له بصيرة به ومتى لم تحصل تلك البصيرة فلا ينبغي الاستعجال"^(٦).

هذه الأحاديث النبوية وغيرها الكثير توضح لنا أن التبين والتأني من الخصال النبوية الحميدة التي يحبهما الله ورسوله ﷺ -والتي رغبنا فيهما القرآن وحثت عليهما السنة النبوية المطهرة ؛ لذلك كان من الواجب علينا الامتثال لأوامر الله وسنة رسوله فتأني في أقوالنا وأفعالنا وأمورنا كلها ، سواء أكانت عبادة أم غيرها ، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر: التأني في الصلاة،، والتأني في تلاوة القرآن الكريم ،، والتأني والتثبت عند تلقى الأخبار،، والتأني في القول

(١) عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن أبو الفضل عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، توفي بمراكش مسموماً ٥٤٤هـ ، ١١٤٩م، من تصانيفه الشفا بتعريف حقوق المصطفى (الأعلام للزركلى ٩٩/٥ ، الطبعة الثامنة ١٩٨٩م، دار العلم للملايين).

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ١/ ١٨٩.

(٣) ذكره المنذرى في الترغيب والترهيب ، كتاب الذكر والدعاء والترغيب في الإكثار من ذكر الله سرا وجهرا ٢ / ٢٨٤ ، رقم الحديث (٢٤١٩) ، عن أنس بن مالك ، وقال المنذرى : رواه أبو يعلى ورجاله رجال الصحيح . (الترغيب والترهيب ، لـ المنذرى دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٧ هـ ، الطبعة الأولى المحقق / إبراهيم شمس الدين) . كما ذكره أبو يعلى في مسند ٧٥ / ٢٤٧ ، رقم الحديث (٤٢٥٦) . كما ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ، كتاب الأدب ، باب ما جاء فى الرفق ٨ / ١٩ ، وقال الهيثمى، رجاله رجال صحيح ، دار الريان للتراث ، دار الكتاب العربى ، القاهرة ، بيروت ١٤٠٧ هـ .

(٤) أخرجه الترمذى فى سننه ، كتاب البر والصلة ، باب (٦٦) ما جاء فى التأني والعجلة، ٤ / ٣٦٧ ، رقم الحديث (٢٠١٢) ، عن أبى عباس بن سهل بن سعد الساعدى عن أبيه عن جده ، وقال أبو عيسى : هذا حديث غريب ، دار الحديث ، القاهرة .

(٥) فيض القدير ٣ / ١٨٤ ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ١٣٥٦ ، الطبعة الأولى .

(٦) الزواجر عن اقتراف الكبائر ، لـ ابن حجر ، ص ١٠٧ .

أولاً : التأنى في الصلاة :

الصلاة هي عماد الدين ، والركن الثاني من أركان الإسلام ، والعبادة الروحية التي يقف فيها المؤمن بين يدي خالقه -ﷻ- لذلك كان ولا بد أن يراعى فيها آداباً وتعاليم ، وضحاها لنا القرآن الكريم ، وبينتها السنة العطرة ، وهذه الآداب وتلك التعاليم ، منها ما يتعلق بهيئة المصلي عند السير إليها ، وهيئته عند أدائها. أما الأول : "فيستحب المشى إلى الصلاة بسكينة ووقار ، ويقارب بين خطاه ، ولا يشبك أصابعه ، وإذا أقبل إلى المسجد أن يقبل بخوف ووجل وخشوع وخضوع ، وأن تكون عليه السكينة والوقار ، ما أدرك صلى وما فات قضى" (١).

ولقد روى عن النبي -ﷺ- أنه قال : "إذا سمعتم الإقامة فما أدركتم فصلوا ، وما فاتكم فأتموا" (٢). والوقار كما في الفتح بمعنى "السكينة ، وذكر على سبيل التأكيد" (٣) قال الإمام النووي : "والظاهر أن بين السكينة والوقار فرق ، وأن السكينة التأنى في الحركات واجتناب العبث ونحو ذلك ، والوقار في الهيئة ، وغض البصر ، وخفض الصوت ، والإقبال على طريقه بغير التفات ونحو ذلك" (٤).

"ولقد اختلف أهل العلم في المشى إلى المسجد ، فمنهم من رأى الإسراع ، وإن خاف فوت التكبيرة الأولى ، ومنهم من كره الإسراع واختار أن يمشى على تودة ووقار ، وإن خاف فوت التكبيرة الأولى... وهذا هو الصواب" (٥). قال الإمام النووي عند شرح الحديث : "واللهي عن إتيانها سعياً سواء فيه صلاة الجمعة وغيرها ، سواء خاف فوت تكبيرة الإحرام أم لا ، والمراد بقول الله تعالى : "فاسعوا إلى ذكر الله" (٦) الذهاب ، يقال : سعيت في كذا وإلى كذا إذا ذهبت إليه وعملت فيه ، والحكمة من إتيانها بسكينة والنهي عن السعي ؛ أن الذهاب إلى صلاة عامداً في تحصيلها سعياً إليها ، فينبغي أن يكون متأدباً بآدابها على أكمل الأحوال" (٧).

قال الإمام المناوي : "يندب لقاصد الجماعة المشى إليها بسكينة ووقار ، وإن خاف فوت التحريم ، وأن لا يعبث في طريقه إليها ولا يتعاطى مالا يليق بها" (٨). وهذا هو القول ... فالمصلي ينبغي عليه التأنى

(١) شرح العمدة في الفقه لأحمد بن عبد الحميد بن تيمية الحراني أبو العباس ٤ / ٥٩٦ ، دار مكتبة العبيكان الرياض ١٤١٣ ، الطبعة الأولى ، تحقيق د / سعود صالح العطيشان .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأذان ، باب لا يسعى إلى الصلاة وليأت بالسكينة والوقار ١ / ٢٠٤ ، رقم الحديث (٦٣٦) عن أبي هريرة .

(٣) فتح الباري ٢ / ١٣٩ ، بتصريف .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ١٠٠ بتصريف يسير .

(٥) تحفة الأحوذى ٢ / ٢٨٩ بتصريف .

(٦) سورة الجمعة ، من الآية : ٩

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ٩٩ .

(٨) فيض القدير ١ / ٢٩٤ بتصريف يسير .

عند مشيه إلى الصلاة ، ما دام قد نوى الصلاة وإدراكها ، وإذا كان المصلي مأمورا بالتأني في هيئته عند المشي إلى الصلاة فمن باب أولى يجب عليه التؤدة والتأني عند أداء أركانها ، وركوعها ، وسجودها ، وقراءتها ، لا سيما وقد قال المولى -عليه السلام- أمرا بالمحافظة عليها "حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين"^(١). فلا نكون عند أدائها كمن يثقل عليها حمل ويريد قذفه ، أو كمن يكون لسان حاله أراحنا الله منها بدلا من أن يكون أراحنا الله بها ؛ ولذا مدح الله -عليه السلام- المؤمنين المحافظين عليها في أكثر من موضع في القرآن ، ففي سورة (المؤمنون) جعل الفلاح والفوز لأولئك الخاشعين في صلاتهم ، فقال: "قد أفلح المؤمنون {الذين هم في صلاتهم خاشعون}"^(٢). قال الإمام الشنقيطي: "أصل الخشوع : السكون الطمأنينة والانخفاض ، وهو في الشرع : خشية من الله تكون في القلب ، فتظهر أثارها علي الجوارح"^(٣). "والخشوع في الصلاة هو : حضور القلب بين يدي الله تعالى مستحضرا لقربه ، فيسكن لذلك قلبه ، وتطمئن نفسه ، وتسكن حركاته ، ويقل التفاته متأدبا بين يدي ربه ، مستحضرا جميع ما يقوله ويفعله في صلاته من أولها إلى آخرها ؛ فتتقي بذلك الوسوس والأفكار الرديئة ، وهذا روح الصلاة والمقصود منها ، وهو الذي يكتب للعبد ؛ فالصلاة التي لا خشوع فيها ولا حضور قلب وإن كانت مجزيه مثابا عليها ، فإن الثواب علي حسب ما يعقل منها"^(٤).

وقد روي في سبب نزول قوله تعالى "الذين هم في صلاتهم خاشعون" "أن رسول الله -عليه السلام- كان إذا صلي رفع بصره إلي السماء ، فنزل : "الذين هم في صلاتهم خاشعون"^(٥). فالخشوع لا شك إنما يحصل بالتأني في الحركات والركوع والسجود ، ولا يحصل مع الاستعجال وعدم التدبر في معاني ما يذكره من الآيات ، والذكر ، والتسبيح ، ونلاحظ في هذه السورة ، أن المولى -عليه السلام- ابتدأ عند ذكر صفات المؤمنين -الموصوفين بالفلاح الوارثين للفردوس- بخشوعهم في الصلاة ، ثم ختمها بالمحافظة عليها ، فقال : "والذين هم على صلواتهم يحافظون"^(٦) مما يدل على أهمية هذا الركن ، وربما قد يتوهم البعض أنه تكرار ، وليس كذلك ؛ قال الإمام الرازي : "إنما أعاد ذكرها ؛ لأن الخشوع والمحافظة متغايران غير متلازمين ، فإن الخشوع صفة للمصلي في حال الأداء لصلاته ، والمحافظة هي التعهد بشروطها من وقت وطهارة وغيرهما ، والقيام على أركانها ، وإتمامها ؛ حتى يكون ذلك دأبه في كل وقت"^(٧). ولذلك فصلهما ، "للإيدان بأن كلا منهما فضيلة مستقلة على حبالها ، ولو قرنا في الذكر لربما توهم أن مجموع الخشوع

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٣٨

(٢) سورة المؤمنون ، الآية : ١ ، ٢ .

(٣) أضواء البيان ٥ / ٧٥٥ ، وينظر التسهيل لعلوم التنزيل لمحمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبلي ٣ / ٤٨ ، ط دار الكتاب العربي ، بيروت ١٤٠٣ ، ١٩٨٣ م ، المحرر الوجيز ٤ / ١٣٦ .

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ، ص ٥٤٨ .

(٥) أسباب النزول للواحد ص ٢١٩ ، وينظر لباب النقول في أسباب النزول لجلال الدين السيوطي ص ٣٠٣ .

(٦) سورة المؤمنون ، الآية : ٩ .

(٧) مفاتيح الغيب للإمام الرازي المجلد الثاني عشر ٢٣ / ٧٢ ، وينظر التسهيل ٣ / ٤٩ .

والمحافظة عليها فضيلة واحدة^(١). أما عن أفراد الصلاة في الآية الأولى ، وجمعها في الثانية فيقول صاحب "الكشاف": "وحدث أولاً ؛ ليفاد الخشوع في جنس الصلاة ، أي صلاة كانت ، وجمعت آخرًا ؛ لتفاد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس ، والوتر ، والسنن المرتبة مع كل صلاة ، وصلاة الجمعة ، والعيد ، والجنائز ، والاستسقاء ، والكسوف ، والخسوف ، وصلاة الضحى ، والتهجد ، وصلاة التسابيح ، وصلاة الحاجة وغيرها من النوافل"^(٢).

ونظير هذه الآية الشريفة ، ما جاء في سورة "المعارج" حين وصف المولى -ﷺ- الإنسان بالهلع ، فهو شديد الجزع عند مس الضر ، شديد الحرص والمنع عند الخير ، ثم استثنى من هذا الجنس الموصوف بذلك الصفة عدة أشخاص وصفهم بعدة صفات ، قال عز من قائل : {إن الإنسان خلق هلوعا } إذا مسه الشر جزوعا { وإذا مسه الخير منوعا } إلا المصلين { الذين هم على صلاتهم دائمون } والذين في أموالهم حق معلوم { للسان والمحرور } والذين يصدقون بيوم الدين { والذين هم من عذاب ربهم مشفقون } إن عذاب ربهم غير مأمون { والذين هم لفروجهم حافظون } إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين { فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون } والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون { والذين هم بشهاداتهم قائمون } والذين هم على صلاتهم يحافظون"^(٣). قال الإمام الشنقيطي: "بدأ الله بأولئك المستثنين وختمهم بالصلاة ، مما يفيد أن الصلاة أصل لكل خير ، ومبدأ لهذا المذكور كله ، لقوله تعالى: " واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين"^(٤) "فهى عون على كل خير ، ولقوله تعالى: "إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر"^(٥) "فهى سياج من كل منكر ، فجمعت طرفي المقصد شرعا ، وهما العون على الخير والحفاظ من الشر ، أى جلب المصالح ودرء المفاسد"^(٦).

كما أنها لأهميتها ذكر لها وصفين : أحدهما : المدوامة عليها وهو ما أشار إليه بقوله: "الذين هم على صلاتهم دائمون" والثاني : المحافظة عليها ، وأشار إليه بقوله "والذين هم على صلاتهم يحافظون" قال الزمخشري : " دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها ، لا يخلون بها ، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل ، ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ، ومواقبتها وقياموا أركانها ، ويكملوا بسننها

(١) إرشاد العقل السليم لأبي السعود ٦ / ١٢٥ .

(٢) الكشاف للزمخشري ٣ / ١٨١ .

(٣) سورة المعارج ، الآيات: ١٩ : ٣٤ .

(٤) سورة البقرة ، الآية: ٤٥ .

(٥) سورة العنكبوت ، من الآية: ٤٥ .

(٦) أضواء البيان ٨ / ٤٦١ ، ٤٦٢ .

وآدابها ، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم ، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات ، والمحافظة على أحوالها^(١).

ولأهمية التأني في الصلاة ، والخشوع فيها ، وإتمام أركانها وحركاتها ، ذم الله - ﷻ - من لم يحافظ عليها ، بل وتوعدهم بالعذاب ، قال تعالى: " فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا "^(٢). قال الإمام السعدي : " أضاعوا الصلاة التي أمروا بالمحافظة عليها وإقامتها فتهاونوا بها ، وضيعوها ، وإذا ضيعوا الصلاة التي عماد الدين ، وميزان الإيمان والإخلاص لرب العالمين ، والتي هي أكد الأعمال ، وأفضل الخصال ، كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله أرفض "^(٣) وقال القرطبي: " من لم يحافظ على كمال وضوئها ، وركوعها وسجودها ، فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه "^(٤). ولذلك كان جزاء من ضيعها الغي والضلال ، وهو ما أشار إليه بقوله " فسوف يلقون غيا " والغني : "الضلال والخيبة "^(٥).

ولم يكن الضلال والخسران ، فقط هو نصيبهم من العذاب ، بل لقد توعدهم " بالويل " فقال: "قويل للمصلين { الذين هم عن صلاتهم ساهون "^(٦). " والويل كلمة تقال عند الهلكة ، وقيل ويل قبوح ، وقيل : الشديد من العذاب ، وقيل : الهلاك يستعمل لمن لا يرجى خلاصه "^(٧). قال الزمخشري : " هم الذين يسهون عن الصلاة ، قلة مبالاة بها حتى تفوتهم ، أو يخرج وقتها ، أو لا يصلونها كما صلاها رسول الله - ﷺ - والسلف ، ولكن ينقرونها نقرا من غير خشوع وإخبات ، ولا اجتناب لما يكره فيها من العبث بالحيمة ، والثياب ، وكثرة التثاؤب والالتفات ، لا يدرى الواحد منهم عن كم انصرف ، ولا ما قرأ من السور "^(٨). وقال الإمام المراغي : " فهم وإن سماهم مصلين ؛ لأنهم أتوا بصورة الصلاة ، وصفهم بالسهو عن حقيقتها ولبها ، وهو توجه القلب إلى الله ، والإخبات إليه وهو المشعر بعظمته "^(٩).

(١) الكشف ٤ / ٦١٥ .

(٢) سورة مريم ، من الآية : ٥٩ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٤٩٧ .

(٤) تفسير القرطبي المجلد السادس ١١ / ٨٢ ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، ط الأولى ١٤٠٨ ، ١٩٨٨

(٥) مختار الصحاح لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي ، ص ٢٠٣ ، باب الغين .

(٦) سورة الماعون ، الآيات : ٤ ، ٥ .

(٧) التبيان في غريب القرآن لشهاب الدين أحمد بن محمد الهائم المصري ص ٩٦ ، دار الصحابة للتراث ، مصر

١٤١٢ هـ ، ١٩٩٢ م ، المحقق / فتحى أنور الدابلى . الطبعة الأولى .

(٨) الكشف ٤ / ٨٠٩ .

(٩) تفسير المراغى ١ / ٣٣ .

وقد يتساءل البعض ، ما الفرق بين قوله " عن صلاتهم " وقولك " في صلاتهم " ؟ والجواب :
أن معنى قوله (عن) أنهم ساهون عنها سهو ترك لها وقلة التفات إليها ، وذلك فعل المنافقين ، أو الفسقة الشطار من المسلمين ، وأما قولك " في " فالمعنى أن السهو يعتريهم فيها بوسوسة الشيطان أو حديث نفس وذلك لا يكاد يخلو منه مسلم^(١). قال ابن كثير : " لم يقل في صلاتهم ساهون ؛ لأن المعنى أنهم ساهون إما عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائما أو غالبا ، وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به ، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها . فاللفظ يشمل ذلك كله ، ولكن من اتصف بشيء من ذلك له قسط من هذه الآية ، ومن اتصف بجميع ذلك . فقد تم له نصيبه منها وكمل له النفاق العملي^(٢).
قال المولى -رحمه الله- في صفة صلاة المنافقين : "إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يראؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا"^(٣).

قال ابن كثير : "هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها وهي الصلاة إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها ؛ لأنهم لا نية لهم فيها ، ولا إيمان لهم بها ، ولا خشية ، ولا يعقلون معناها"^(٤). فلقد روى عن العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس ابن مالك في داره بالبصرة حين انصرف من الظهر ، وداره بجانب المسجد ، فلما دخلنا عليه ، قال : أصليتم العصر ؟ فقلنا له : إنما انصرفنا الساعة من الظهر ، قال : فصلوا العصر ، فقمنا فصلينا ، فلما انصرفنا ، قال : سمعت رسول الله -ﷺ- يقول : " تلك صلاة المنافقين يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان^(٥) أقام فنقرأ أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا"^(٦). قال الإمام النووي : " فقلنا : أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا " تصريح بزم من صلى مسرعا بحيث لا يكمل الخشوع ، والطمأنينة ، والأذكار ، والمراد بالنقر سرعة الحركات كنقر الطائر"^(٧).

(١) تفسير الكشاف ٤ / ٨٠٩ بتصرف .

(٢) تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ٤ / ٥٥٥ بتصرف يسير ، دار الفكر بيروت ١٤٠١ هـ .

(٣) سورة النساء ، الآية : ١٤٢ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ١ / ٥٦٩ .

(٥) قوله " بين قرني الشيطان " اختلفوا فيه ، فقيل : هو على حقيقته ، وظاهر لفظه . والمراد أنه يحاذيها بقرنيه عند غروبها وكذا عند طلوعها ؟ لأن الكفار يسجدون لها حينئذ فيقارنها ليكون الساجدون لها في صورة الساجدين له ، ويخيل لنفسه ولأعوانه أنهم إنما يسجدون له ، وقيل هو على المجاز والمراد بقرنه وقرنيه علوه وارتفاعه وسلطانه وتسلطه وغلبته ، قال الخطابي : هو تمثيل معناه أن تأخيرها تزيين الشيطان ومدافعتهم لهم عن تعجيلها كمداغة ذوات القرون لما تدفعه والصحيح الأول. (صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ١٢٤).

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب استحباب التكبير بالعصر ، ١ / ٤٣٤ ، رقم الحديث (٦٢٢).

(٧) صحيح مسلم بشرح النووي ٥ / ١٢٤ .

لذلك نجد النبي -ﷺ- ينهى في الصلاة عن التشبه بالغراب في النقر، فقد روى عن عبد الرحمن بن شبل الأنصاري^(١) قال: "نهى رسول الله -ﷺ- عن افتراش السبع ونقرة الغراب، وأن يوطن الرجل المكان كما يوطن البعير"^(٢) "فتضمن الحديث النهي في الصلاة عن التشبه بالحيوانات، وبالغراب في النقرة، وبالسبع بافتراشه ذراعيه في السجود، وبالبعير في لزومه مكانا معينا من المسجد يتوطنه كما يتوطن البعير"^(٣). والمراد من التشبيه في قوله "نقرة الغراب" أنه يخفف السجود ولا يمكث فيه قدر وضع الغراب منقاره فيما يريد أكله^(٤)... كما عد -ﷺ- من لا يتم ركوعه وسجوده سارقا بل أسوأ الناس سرقة... فقد روى عن رسول الله -ﷺ- أنه قال: "أسوأ الناس سرقة الذي يسرق صلاته"، قالوا: "يا رسول الله، كيف يسرق صلاته؟! قال: "لا يتم ركوعها ولا سجودها"^(٥) قال الباجي: "إنما قصد أن يعلمهم أن الإخلال بإتمام الركوع والسجود كبيرة من الكبائر وهي أسوأ مما تقرر عندهم أنه فاحشة.... وإنما خص الركوع والسجود؛ لأن الإخلاص في الغالب إنما يقع بهما"^(٦). وإنما سماه سرقة، على معنى خيانة فيما أوثمن على أدائه"^(٧). قال الإمام المناوي: "وجه كونه أسوأ، أن السارق إذا وجد مال الغير قد ينتفع به في الدنيا

(١) عبد الرحمن بن شبل بن عمرو بن زيد بن نجدة بن مالك بن لوذان الأنصاري أحد نقباء الأنصار، روي عن النبي وروى عنه تميم بن محمود ويزيد بن خمير مات في إمارة معاوية بن أبي سفيان (الإصابة في تمييز الصحابة ٣١٥/٤، وانظر تهذيب التهذيب ١٧٥/٦).

(٢) سنن الدارمي لعبد الله بن عبد الرحمن الدارمي، كتاب الصلاة، باب النهي عن الافتراش ونقرة الغراب، ١ / ٣٤٨، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧ هـ. المحقق / فؤاد أحمد زمرلي، خالد السبع العلمي، ومسنند أحمد ٣ / ٤٢٨، مؤسسة قرطبة بمصر، وصحيح بن حبان لمحمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي ٦ / ٥٣. تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٤ هـ، ١٩٩٣ م، وسنن البيهقي لأحمد بن الحسين علي بن موسى أبي بكر البيهقي كتاب الصلاة، باب التغليظ على من لا يتم الركوع والسجود ٢ / ١١٨، مكتبة دار الباز، مكة المكرمة ١٤١٤ هـ ١٩٩٤ م، تحقيق محمد عبد القادر عطا.

(٣) الصلاة وحكم تاركها وسياق صلاة النبي -ﷺ- من حين كان يكبر إلى أن يفرغ "لمحمد بن أبي بكر أبوب الزرعي أبو عبد الله بن القيم الجوزية ص ١٧٢، دار النشر: الحفان والجابي، دار ابن حزم، قبرص، بيروت ١٤١٦ هـ، ١٩٩٦ م، الطبعة الأولى، المحقق بسام عبد الوهاب الجابي.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ٥ / ١٠٤، باب النون مع القاف بتصرف.

(٥) أخرجه الدارمي في سننه، كتاب الصلاة، باب في الذي لا يتم الركوع والسجود ١ / ٣٥٠، عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه، كما أخرجه أحمد ٥ / ٣١٠، كما ذكره ابن خزيمة في صحيحه (لمحمد بن إسحاق بن خزيمة أبي بكر السلمي النيسابوري) كتاب الصلاة، باب إتمام السجود والزجر عن انتقاصه، وتسمية المنتقص ركوعه وسجوده سارقا أو هو سارق في صلاته ١ / ٣٣٢، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ، ١٩٩٢ م تحقيق د / محمد مصطفى الأعظمي.

(٦) المنتقى شرح موطأ الإمام مالك للإمام الباجي^(١) للقاضي أبي الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث الباجي الأندلسي من أعيان الطبقة العاشرة من علماء السادة المالكية المولود ٤٠٣ هـ، المتوفى سنة ٤٩٤ هـ^(٢) ١ / ٢٩٨، ٢٩٩ دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣ هـ، ١٩٨٣ م.

(٧) تنوير الحوالك للسيوطي ١ / ١٤٠، المكتبة التجارية مصر ١٣٨٩ هـ، ١٩٦٩ م.

أو يستحل صاحبه أو يجد فينجو من عذاب الآخرة ، بخلاف هذا فإنه سرق حق نفسه من الثواب ، وأبدل منه العقاب في العقبي^(١) وقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : "من صلى الصلوات لوقتها وأسبغ لها وضوءها وأتم لها قيامها وخشوعها وركوعها وسجودها خرجت وهي بيضاء مسفرة تقول : حفظك الله كما حفظتني ، ومن صلى لغير وقتها ، ولم يسبغ لها وضوءها ، ولم يتم لها خشوعها ولا ركوعها خرجت وهي سوداء مظلمة ، تقول : ضيعك الله كما ضيعتني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق ، ثم ضرب بها وجهه"^(٢).

قال الإمام المناوي: "معنى قول الصلاة "حفظك الله كما حفظتني " أى حفظاً مثل حفظك لى بإتمام أركانى ، وكمال إحسانى بالتأدية بخشوع القلب والجوارح وقولها " ضيعك الله كما ضيعتني " أى ترك كلاءتك وحفظك حتى تهلك جزاء لك على عدم وفائك بتبديل أركانى"^(٣) وقال الإمام الغزالي : " اعلم فى الحال أنك قائم بين يدى الله -ﷻ- وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدى بعض ملوك الزمان ، إن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله بل قدر فى دوام قيامك فى صلاتك أنك ملحوظ ومراقب بعين كائلة من رجل صالح من أهلك أو ممن ترغب فى أن يعرفك بالصلاح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخضع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع ، وإذا أحسست من نفسك بالتماسك عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك ، وقل لها : إنك تدعين معرفة الله وحبه ، أفلا تستحيين من إستجرائك عليه مع توقيرك عبداً من عباده ؟ أو تخشين الناس ولا تخشيه وهو أحق أن يخشى؟! "^(٤).

فأحرص أيها المسلم ، وأيتها المسلمة ، على المحافظة على الصلاة وعدم تضييعها ؛ فبصلاحها يصلح حالك ، وإيمانك ، ودعاؤك ، إذ هى الصلة بينك وبين خالقك ورازقك -ﷻ- فإذا أفسدتها أفسدت حالك ، وضيعت إيمانك ، وما استجيب لدعائك ، وأعلم أن الصلاة هى أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة . فقد روى أن النبي ﷺ قال: "إن أول ما يحاسب الناس عليه يوم القيامة من أعمالهم الصلاة ، قال: يقول ربنا -ﷻ- لملائكته -وهو أعلم-: " انظروا فى صلاة عبدي أتمها أم نقصها ؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة ، وإن كان انتقص منها شيئاً . قال: " انظروا هل لعبدي من تطوع ؟ " فإن كان له تطوع ، قال : "

(١) فيض القدير للمناوى ١ / ٥١٣ ، ٥١٤ .

(٢) ذكره الهيثمى فى مجمع الزوائد ، باب المحافظة على الصلاة لوقتها ١ / ٣٠٢ ، عن أنس بن مالك ، كما ذكره البيهقى فى شعب الإيمان ٣ / ١٤٤ ، عن عبادة بن الصامت . بسند ضعيف .

(٣) فيض القدير للمناوى ١ / ٢٤٩ بتصرف يسير .

(٤) إحياء علوم الدين ، ١ / ١٦٦ ، دار المعرفة ، بيروت لبنان .

أتموا لعبدي فريضته " . ثم تؤخذ الأعمال على ذلك^(١). قال ابن عبد البر : " أما إكمال الفريضة من التطوع ، فإنما يكون ذلك - والله أعلم - فيمن سها عن فريضته فلم يأت بها ، أو لم يحسن ركوعها ولم يدر قدر ذلك ، وأما من تعمد أو نسي ثم ذكرها فلم يأت بها عامداً أو اشتغل بالتطوع عن أداء فرضه وهو ذاكر له ، فلا تكمل له فريضته من تطوعه " والله أعلم^(٢).

وما أخرجنا إلى حسناتنا وتطوعنا يوم القيامة !! جعلنا الله وإياكم من الخاشعين القانتين المحافظين على صلاتنا وركوعنا وسجودنا إلى يوم الدين .

ثانيا : الثاني في تلاوة القرآن بتدبره^(٣)

القرآن الكريم هو : كلام الله المنزل على خاتم النبيين وأشرف المرسلين النبي الأمي المبعوث رحمة للعالمين - سيدنا محمد ﷺ - ولأنه جامع الحكم والعلوم كلها ، فيه خير الدنيا والآخرة ؛ حثا الله - ﷻ - ورسوله بتلاوته مع تدبر معانيه والوقوف على أسرارها ؛ لكي نقف على غرائبه وعجائبه التي لا تحصى ولا تعد ، قال الإمام المراغي : " ومن يتله وهو معرض عن تدبره والتأمل في العبرة منه يكن كالمستهزئ بربه ، وما مثله إلا مثل من يرسل كتابا إلى آخر لغرض خاص فيقرؤه المرسل إليه مثلي وثلاث ورباع ، ويترنم به ولا يلتفت إلى معناه ، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ، أيرضى المرسل بمثل هذا ويكتفي به عن إجابة طلبه أم يعده استهزاء به ، فعلى المؤمن في كل زمان ومكان أن يتلو القرآن بالتدبر والتفهم والعمل بما فيه ، فإن كان أميا أو أعجميا فإنه ينبغي أن يطلب من أهل الذكر أن

(١) أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الصلاة ، باب قول النبي (ص) " كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه " ١ / ٢٢٩ ، واللفظ له ، رقم الحديث (٨٦٤) عن أبي هريرة ، كما أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب صفة الصلاة ، باب ما جاء أن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة الصلاة ، ٢ / ٢٧٠ وقال : حديث حسن غريب ، ط ، دار الحديث القاهرة .

(٢) التمهيد لابن عبد البر أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري ٢٤ / ٨١ .

(٣) التدبر مصدر وهو مأخوذ من مادة (دبر) التي يقول عنها ابن فارس: أصل هذا الباب أن جله في قياس واحد ، وهو آخر الشيء ، وخلفه خلاف قبله ، في معظم الباب أن الدبر خلاف القبل ، وفي الحديث: لا تدبروا وهو من الباب ، وذلك أن يترك كل واحد منها الإقبال على صاحبه بوجهه. (معجم مقاييس اللغة ٢/ ٣٢٤ ، كتاب الدال ، باب الدال والباء وما يثنيهما) قال ابن منظور: دبر الأمر تدبره نظر في عاقبته ، واستدبره رأى في عاقبته مالم ير في صدره ، وعرف الأمر تدبرا أي بآخره ، والتدبر في الأمر : التفكير فيه ، وفلان ما يدري قبال الأمر من دبره أي أوانه من آخره ، ويقال : إن فلانا لو استقبل من أمره وما استدبره في آخره لا سترشد لأمره (لسان العرب ٢ / ١٣٢٠ ، باب الدال) والتدبر اصطلاحاً : النظر في عواقب الأمور ، وهو قريب من التفكير إلا أن التفكير تصرف القلب بالنظر في السبيل والتدبر تصرفه في العواقب " التعريفات للجرجاني ص ٥٨ ، كتاب التاء ، وينظر التوقيف على مهمات التعاريف ص ١٦٧ ، الأولى ، دار الفكر المعاصر ، دار الفكر بيروت ، دمشق ، المحقق د/ محمد رضوان الدايدة.

يفهموه معناه ويشرحوا مغزاه^(١). فيجب علينا التأني في تلاوة القرآن بتدبره وتفهم آياته بما تحتويها من الغرائب والعجائب.

قال الإمام ابن القيم^(٢): "تدبر القرآن هو : تحديق ناظر القلب إلى معانيه ، وجمع الفكر على تدبره وتعقله وهو المقصود بإنزاله ، لا مجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر"^(٣) فلا يتعجل في تلاوته دون فهم لمعانيه ، والوقوف على بدائعه وأسراره ، بل الواجب تدبره ؛ ليرى ما فيه من الفصاحة والبلاغة والإعجاز والنسق الواحد ، والترتيب الفريد بلا تضاد ولا تناقض ، قال تعالى : "أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا"^(٤).

فهذه الآية وردت بعد الحديث عن مكر المنافقين وكيدهم ، حينما أمرهم رسول الله ﷺ بطاعته وأخبرهم أن من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن يعصه فقد عصى الله ، فكان من أمرهم أن قالوا : إن محمدا قد أشرك ، يدعوننا لنعبده من دون الله ، فقال تعالى مخبرا عن حالهم: "ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكبيرا"^(٥) فحالهم هو إظهار الولاء والطاعة لرسول الله ﷺ وإخفاء الحقد والعداوة ، لذا أمره المولى - ﷺ - بالأعراض عنهم فهو المتكفل بهم ، ثم أخبره - ﷺ - بأنهم لو تدبروا آياته - ﷺ - لعلموا وأيقنوا صدق ما يقوله رسول الله ﷺ - لهم ؛ إذ لو كان ما يقوله من عند نفسه أو من عند غير الله لوجدوا فيه تناقضا واختلافا وتضادا لا حصر له ، قال الإمام الرازي: "اعلم أنه تعالى لما حكى عن المنافقين أنواع مكرهم وكيدهم ، وكان كل ذلك لأجل أنهم ما كانوا يعتقدون كونه محقا في ادعاء الرسالة صادقا فيه ، بل كانوا يعتقدون أنه مفتر ، فلا جرم أمرهم الله تعالى ، بأن ينظروا في الدلائل الدالة على صحة نبوته"^(٦). فالآية إنكار لإعراضهم عن التأمل في بلاغة القرآن وفصاحته التي يعجز عن الإتيان بها بشر ؛ مهما أوتى من علم ، قال أبو حيان: " هذا استفهام معناه الإنكار ؛ أي أفلا يتأملون ما نزل عليك من الوحي ، ولا يعرضون عنه ، فإنه في تدبره يظهر برهانه ، ويسطع نوره ، ولا يظهر لمن أعرض عنه ولم يتأمله"^(٧). "فالآية إنما تأمرهم بتدبر القرآن ، وتفهم معانيه المحكمة ، وألفاظه البليغة ؛ فهو الكفيل بتصحيح خطتهم

(١) تفسير المراعي ، ٢٠٦/١ .

(٢) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي أبي عبد الله ، مولده ووفاته في دمشق ، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية وسجن معه في قلعة دمشق وأطلق بعد موت ابن تيمية ، ألف تصانيف كثيرة ، منها : أعلام الموقعين ، والطرق الحكمية في السياسة الشرعية ، وغيرهم ، توفي ٧٥١هـ ، ١٣٥٠م . (الأعلام للزركلي ٥٦/٦ ، التاسعة ١٩٩٠) .

(٣) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، لابن القيم ٤٥١/١ ، دار الكتاب العربي ، بيروت لبنان ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٢م ، تحقيق/ محمد حامد الفقي .

(٤) سورة النساء ، الآية : ٨٢ .

(٥) سورة النساء ، الآية : ٨١ .

(٦) مفاتيح الغيب للرازي المجلد الخامس ١٠/١٥٦ .

(٧) البحر المحيط ٣/٣٠٥ ، دار الكتاب الإسلامي القاهرة .

ومنهجهم ، ويخبرهم أنه لا اختلاف فيه ، ولا اضطراب ولا تعارض ؛ لأنه تنزيل من حكيم حميد ؛ فهو حق من حق^(١) . وهو خير دليل على صدق نبوته -ﷺ- " وذلك من ثلاثة أوجه : أولها : فصاحته ، وثانيها : اشتماله على الإخبار عن الغيوب ، وثالثها : سلامته عن الاختلاف ، وهو المذكور في هذه الآية .

وفى تفسير سلامته عن الاختلاف ثلاثة أوجه : الأول : معناه أن هؤلاء المنافقين كانوا يتواطئون في السر على أنواع كثيرة من المكر والكيد ، والله تعالى كان يطلع الرسول -ﷺ- على تلك الأحوال حالا فحالا ، ويخبره عنها على سبيل التفصيل ، وما كانوا يجدون في ذلك إلا الصدق ، فقبل لهم : إن ذلك لو لم يحصل بإخبار الله تعالى لما أطرده الصدق فيه ؛ ولظهر في قول محمد أنواع الاختلاف و التفاوت ، فلما لم يظهر ذلك علمنا أن ذلك ليس إلا بإعلام الله تعالى . الثاني : أن المراد أن القرآن كتاب كبير ، وهو مشتمل على أنواع كثيرة من العلوم ؛ فلو كان ذلك من عند غير الله ؛ لوقع فيه أنواع من الكلمات المتناقضة ؛ لأن الكتاب الكبير الطويل لا ينفك عن ذلك ، ولما لم يوجد فيه ذلك علمنا أنه ليس من عند غير الله . الثالث : أن المراد منه الاختلاف في رتبة الفصاحة ؛ حتى لا يكون في جملته ما يعد في الكلام الركيك ، بل بقيت الفصاحة فيه من أوله إلى آخره على نهج واحد ، ومن المعلوم أن الإنسان وإن كان في غاية البلاغة ونهاية الفصاحة ، فإذا كتب كتابا طويلا مشتملا على المعاني الكثيرة ، فلا بد وأن يظهر التفاوت في كلامه بحيث يكون بعضه قويا متينا ، وبعضه هينا نازلا ، ولما لم يكن القرآن كذلك ؛ علمنا أنه ليس من عند غير الله^(٢) .

وهكذا "فكل ألوان الاختلافات والاحتمالات التي نجدها في كلام البشر ، لا نجدها في القرآن الكريم ؛ مما يدل قطعا على أنه كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ فهو قد أعجز ببلاغته وفصاحته وجزالته البلغاء والفصحاء ، وصور الحقائق تصويرا تاما بلا اختلاف ولا تناقض ، وأخبر عن الماضي السحيق خبرا صادقا موافقا للواقع ، وتحدث عن الحاضر ، ومكنونات الأنفس والضمائر بما يبهر ويعجب ويخرس الألسنة الناقدة ، وأنبا عن بعض الأمور في المستقبل ؛ فجاء الحدث مطابقا لما أنبا عنه ؛ ووضع أصول العقيدة والتشريع في القضايا العامة والخاصة ، وصور لنا عالم الغيب ، ومشاهد القيامة بصور مرئية محسوسة دون أن نشاهدها وننجذب إليها ، وترتسم صورها في أذهاننا دون أن نفارقها لشدة وقعها ، وبراعة تصويرها ، وصدق حكايتها وواقعيتها "الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ومن يضلل الله فما له من هاد"^(٣) .

(١) التفسير المنير ١٧١/٥ ، بتصرف .

(٢) مفاتيح الغيب ، المجلد الخامس ١٥٧/١٠ بتصرف .

(٣) سورة الزمر ، من الآية : ٢٣ .

ولو انصف المسلمون أنفسهم ؛ ما اتخذوا هذا القرآن مهجورا ، ولو تدبروا ما فيه ، وفهموا ما رسمه لهم من طريق الحياة السوية لما انحدروا إلى ما هم عليه الآن ، فهو مرشد الهداية ونور الأمة ، وصراط الله المستقيم ، ومفتاح السعادة وطريق تحقق المصلحة ، وبناء الأمة وتحضرها ، قال تعالى: "إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا" (١) "أفلا يتدبر هؤلاء أن هذا هو الكتاب المعجز ؟ أم أغلقت قلوبهم بأقفال فلا يفهمون ولا يعقلون ؟!! قال تعالى "أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها" (٢) "أفلا يتدبرون القرآن ويتصفحونه ؛ فيعلمون بما أشتمل عليه من المواعظ والزواجر ، والحجج الظاهرة ، والبراهين القاطعة ؟ بل على قلوبهم أقفال ! فهم لا يفهمون ولا يعقلون شيئا من معانيه ، ولا تتفتح قلوبهم للحق" (٣). قال الزمخشري -رحمه الله-: "فإن قلت لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها ؟ قلت: أما التكرير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك أو يراد على بعض القلوب وهي قلوب المنافقين ، وأما إضافة الأقفال ؛ فلأنه يريد الأقفال المختصة بها وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تتفتح" (٤).

فالقرآن هو خير كتاب أنزل على خير رسول أرسل ، ولو تدبره الإنسان لترقى به إلى الدرجات العلا في الدنيا والآخرة ... "كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب" (٥). فهو كتاب كثير الخير والبركة ، فيه شفاء لمن تداوى به ، وهداية لمن اهتدى بهديه ونجاة لمن استغاث بنفحاته ، وهذا لا يحصل لمن تلاه تلاوة سريعة بدون تفهم وتفكر. قال الإمام النيسابوري: "فمن حفظ حروفه وضع حدوده كان مثله كمثل من علق اللؤلؤ والجواهر على الخنازير" (٦). وقال الزمخشري: "قد قرأ هذا القرآن عبید وصبيان لا علم لهم بتأويله ، حفظوا حروفه ، وضعوا حدوده ، حتى إن أحدهم ليقول " والله لقد قرأت القرآن فما أسقطت منه حرفا . وقد والله أسقطه كله ، ما يرى للقرآن عليه أثر في خلق ولا عمل ، والله ، ما هو بحفظ حروفه وإضاعة حدوده ، والله ما هؤلاء بالحكماء ، ولا الورعة ، لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء ، اللهم اجعلنا من العلماء المتدبرين وأعدنا من القراء المتكبرين" (٧).

ونلاحظ في هذه الآية الكريمة : أن التدبر أسند إلى ضمير الجمع في قوله (ليتدبروا) بينما جاء التذكر لأولى الألباب بقوله (وليتذكر أولوا الألباب) قال أبو حيان موضحا الحكمة من هذا : "أسند التدبر في

(١) سورة الإسراء ، الآية: ٩.

(٢) التفسير المنير ١٧٢/٥ بتصرف.

(٣) سورة محمد ، الآية: ٢٤

(٤) التفسير المنير ١٢٢/٢٥ ، ١٢٣ بتصرف .

(٥) الكشف ٣٢٨/٤.

(٦) سورة ص ، الآية: ٢٩.

(٧) غرائب القرآن و رغائب الفرقان للنيسابوري ٤٣١/٩.

(٨) الكشف ٩٢/٤ ، عن الحسن.

الجميع وهو التفكير في الآيات والتأمل الذي يفضي بصاحبه إلى النظر في عواقب الأشياء ، وأسند التذکر إلى أولى العقول ؛ لأن ذا العقل فيه ما يهديه إلى الحق وهو عقله فلا يحتاج إلا إلى ما يذكره فيتذكر^(١). فالقرآن فيه من العبرة والعظة مالا يتدبرها إلا من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ... "إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"^(٢).

قال ابن القيم - رحمه الله -: " الناس عند سماع القرآن ثلاثة ؛ رجل قلبه ميت فذلك الذي لا قلب له ، فهذا ليست هذه الآية ذكرى في حقه ؛ ورجل له قلب حي مستعد ، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة التي يخبر بها الله عن الآيات المشهودة ، إما لعدم ورودها ، أو لوصولها إليه ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها ، فهو غائب القلب ، ليس حاضرا فهذا أيضا لا تحصل له الذكرى ، مع استعداد وجود قلبه ، ورجل حي القلب مستعد ، تلئت عليه الآيات فأصغى سمعه ، وألقى السمع وأحضر قلبه ، ولم يشغله بغير فهم ما يسمعه ، فهو شاهد القلب ، ملق السمع ، فهذا القسم هو الذي ينتفع بالآيات المتلوة المشهودة ... **فالأول :** بمنزلة الأعمى الذي لا يبصر ... **والثاني :** بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه فكلاهما لا يراه ... **والثالث :** بمنزلة البصير الذي حدق إلى جهة المنظور ، وأتبعه بصره ، وقابله على توسط من البعد والقرب ، فهذا هو الذي يراه ، فسبحان من جعل كلامه شفاء لما في الصدور ، فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وقاد مليء باستخراج العبر ، واستنباط الحكم ؛ فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار ، فإذا سمع الآيات كانت له نورا على نور ، وهؤلاء أكمل خلق الله ، وأعظمهم إيمانا وبصيرة ، حتى كأن الذي أخبرهم به الرسول مشاهد لهم ، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه ، حتى قيل : إن مثل حال الصديق مع النبي - ﷺ - كمثل رجلين دخلا دارا ، فرأى أحدهما تفاصيل مافيها وجزئياته ، والآخر وقعت يده على مافي الدار ولم ير تفاصيله ولاجزئياته ، لكن علم أن فيها أمورا عظيمة ، لم يدرك بصره تفاصيلها ، ثم خرجا فسأله عما رأى في الدار ؟ فجعل كلما أخبره بشيء صدقه لما عنده من شواهد ، وهذه أعلى درجات الصديقية ، ولا تستبعد أن يمن الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان ، فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حساب . فصاحب هذا القلب إذا سمع الآيات وفي قلبه نور من البصيرة ازداد بها نورا إلى نوره ، فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمع وشهد قلبه ولم يرغب حصل له التذكر أيضا "فإن لم يصبها وابل فطل " والوايل والطل في جميع الأعمال وآثارها ، وموجباتها ، وأهل الجنة سابقون مقربون وأصحاب يمين ، وبينهما في درجات التفضيل ما بينهما"^(٣).

قال الإمام القرطبي : " لمن كان له قلب أي عقل يتدبر به ، فكفى بالقلب عن العقل لأنه موضعه"^(٤) وقال الفراء : " وهذا جائز في العربية أن تقول : مالك قلب ، وما قلبك معك ، وأين ذهب

(١) البحر المحيط ٣٩٦/٧ ، الطبعة الثانية ١٤١٣ ، ١٩٩٢ م . دار الكتاب الإسلامي بالقاهرة .

(٢) سورة ق ، الآية : ٣٧ .

(٣) مدارج السالكين ١/٤٤٢ ، ٤٤٣ ..

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد التاسع ١٧/١٧ .

قلبك ؟ تريد العقل لكل ذلك ^(١) وقيل المعنى : " لمن كان له حياة ونفس مميزة ، فعبر عن النفس الحية بالقلب ؛ لأنه وطنها ومعدن حياتها ، وقيل : القلب قلبان ؛ قلب محتشئ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع ، وقلب قد احتشئ بأحوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة ^(٢) . وقال الزجاج في معنى قوله : "أو ألقى السمع وهو شهيد" أي استمع ولم يشغل قلبه بغير ما يسمع والعرب تقول " ألق إلى سمعك ، أي استمع مني ، ومعنى وهو شهيد أي وقلبه حاضر فيما يسمع ^(٣) . " وفي الآية ترتيب حسن ؛ لأنه إن كان ذا قلب ذكي يستخرج المعاني بتدبره وفكره فذاك ، وإلا فلا بد أن يكون مستمعاً مصغياً إلى كلام المنذر ليحصل له التذكر ^(٤) . فالمولى - ﷺ - يحث عباده على تدبر آياته ؛ ليحصل لهم النفع والخير الكثير من خلال فهمه والتفكر فيه والعمل به " فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده ، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن ، وإطالة التأمل ، وجمع الفكر على معاني آياته ، فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذاقيرها ، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغايتهما وثمراتهما ومآل أهليهما ، وتضع في يده مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة ، وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ، وتشيد بنيانه وتوطد أركانه ، وتريه صورة الدنيا والآخرة ، والجنة والنار في قلبه ، وتحضره بين الأمم وتريه أيام الله فيهم وتبصره مواقع العبر ، وتشهده عدل الله وفضله ، وتعرفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله وما يحبه ويبغضه ، وصراطه الموصل إليه ، وما لسالكه بعد الوصول والقدوم عليه ، وقواطع الطريق وآفاتها ، وتعرفه النفس وصفاتها ، ومفاسدات الأعمال ومصححاتها ، وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم ، وسيماهم ، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه وافتراقهم فيما يفتشقون فيه ^(٥) . وكثير من الخصال والفوائد التي لانهاية لها .

قال مجاهد في مقدمة تفسيره: "إن القرآن كتاب الله وكلامه ، وكما أنه ليس لله نهاية فكذا لانهاية لفهم كلامه ، وإنما يفهم كل بمقدار ما يفتح الله عليه ، والحق ما قاله سهل بن عبد الله التستري ^(٦) لو أعطى العبد بكل حرف من القرآن ألف فهم ، لم يبلغ نهاية ما أودعه الله في آية من كتابه ^(٧) . فلنتدبر آيات

(١) معاني القرآن للفراء ٨٠/٣ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ ، تحقيق د / عبد الفتاح إسماعيل شلبي ، مراجعة الأستاذ على النجدي ناصف .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد التاسع ١٧/١٧ درا الكتب العلمية بيروت ، لبنان .

(٣) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٤٩/٥ .

(٤) غرائب القرآن ور غائب الفرقان ٢٨٥ / ١٠ .

(٥) مدارج السالكين ٤٥١/١ .

(٦) من أعظم المشايخ المشهورين ، حفظ القرآن وهو ابن سبع ، له تصانيف نفيسة منها رقائق المحبين ومواعظ العارفين وجوابات أهل اليقين وغير ذلك ، مات سنة ٢٨٣ عن ٨٣ سنة ينظر طبقات الصوفية (الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية) لزين الدين محمد عبد الرؤوف المناوي ، الجزء الأول ، القسم الثاني ، ص ٦٣٣ وما بعدها .

(٧) مقدمة تفسير مجاهد ٩/١ المنشورات العلمية ، بيروت .

الله -ﷻ- لننال به خيرى الدنيا والآخرة وننال رضى المولى -ﷺ- وشفاعة رسوله -ﷺ-. قال الشيخ العراقي أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزى: "صنف الله -ﷻ- هذه المخلوقات فأحسن التركيب ، وأحكم الترتيب ، ثم عرضها على الألباب ، فأبى لب أوغل فى النظر مدح على قدر فهمه فأحبه المصنف ، وكذلك أنزل القرآن يحتوى على عجائب الحكم ، فمن فتشه بيد الفهم وحادثه فى خلوة الفكر ، استجلب رضى المتكلم به ، وحظى بالزلفى لديه"^(١) وقال الزركشى : " اعلم أنه ينبغى لمج موقع النعم على من علمه الله تعالى القرآن العظيم أو بعضه ، بكونه أعظم المعجزات ؛ لبقائه بقاء دعوة الإسلام ، ولكونه -ﷺ- خاتم الأنبياء والمرسلين ، فالحجة بالقرآن العظيم قائمة على كل عصر وزمان ؛ لأنه كلام رب العالمين ، وأشرف كتبه جل وعلا ، فليز من عنده القرآن أن الله ، أنعم عليه نعمة عظيمة ، وليستحضر من أفعاله أن يكون القرآن حجة له لا عليه ؛ لأن القرآن مشتمل على أمور ، والكف عن أمور ، وذكر أخبار قوم قامت عليهم الحجة فصاروا عبرة للمعتبرين حين زاغوا فأزاغ الله قلوبهم وأهلكوا لما عصوا ، وليحذر من علم حالهم أن يعصى ، فيصير مآله مآلهم ، فإذا استحضر صاحب القرآن أن علو شأنه بكونه طريقا لكتاب الله تعالى ، وصدره مصحفا له ، انكفت نفسه عند التوفيق عن الرذائل ، وأقبلت على العمل الصالح الهائل ، وأكبر معين على ذلك حسن ترتيله وتلاوته ، قال تعالى لنبيه -ﷺ-: " ورتل القرآن ترتيلا"^(٢) "أى اقرأه على تمهل مع بيان حروفه ؛ فيكون ذلك عوناً لك على فهمه وتدبره قال الزجاج : " بينه تبييناً ، والتبيين لا يتم بأن يعجل فى القرآن ، وإنما يتم بأن تبين جميع الحروف وتوفى حقها فى الإشباع"^(٣) . والرتل كما عرفه الخليل بن أحمد الفراهيدى^(٤): "تنسيق الشيء وثغر رتل: حسن المتنضد ، ومرتل: مفلج ، ورتلت الكلام ترتيلاً إذا أمهلت وأحسنيت تأليفه ، وهو يرتل فى كلامه ويترسل إذا فصل بعضه عن بعض"^(٥) . وفى الكشف: "ترتيل القرآن أى قراءته على ترتل وتؤدة بتبيين الحروف ، وإشباع الحركات ؛ حتى يجيء المتلو

(١) صيد الخاطر لشيخ العراق أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى ص ١٢٠ تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(٢) البرهان فى علوم القرآن للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشى ٤٤٩/١.

(٣) سورة المزمل ، الآية: ٣.

(٤) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٢٤٠/٥.

(٥) الخليل بن أحمد بن عمرو بن نعيم أبو عبد الرحمن البصري الفراهيدى الأزدى ، النحوي اللغوي ، الزاهد ، كان يمتنع عن قبول عطايا الملوك ، فكان قوته من بستان ورثه عن أبيه ، وكان يحج سنة ويغزو سنة إلى أن مات وله من المصنفات المشهورة منها كتاب العين ، وهو أول من اخترع العروض والقوافي ، ومات سنة ١٧٠ أو ١٧٥^(١) البلغة فى تراجم أئمة النحو واللغة لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي ص ٩٩ حرف الخاء.

(٢) كتاب العين لأبى عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدى ١١٣/٨ حرف التاء ، باب التاء والراء واللام معهما ، دار الحرية للطباعة بغداد ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٣ م ، دار الشؤون الثقافية والنشر ١٩٨٤ م ، تحقيق د/ مهدي المخدومي ، د/ إبراهيم السامرائي.

فيه شبيهاً بالثغر المرتل ، وهو المفلج المشبه بنور الأقحوان^(١) وأن لا يهذه هذا ولا يسرده سرداً^(٢). وقيل رتل من الرتل الذي هو الضعف واللين ، والمعنى : لين القراءة ولا تستعجل بالانكماش^(٣) فترتل القرآن يتمكن الخاطر من التأمل في حقائق الآيات ودقائقها ، فعند الوصول إلى ذكر الله يستشعر عظمتة وجلالته ، وعند الوصول إلى الوعد و الوعيد يحصل الرجاء والخوف ، وحينئذ يستثير القلب بنور معرفة الله ، أما الإسراع في القراءة فهو إنما يدل على عدم الوقوف على المعان ؛ لأن النفس تبتهج بذكر الأمور الإلهية الروحانية ، ومن ابتهج بشيء أحب ذكره ، ومن أحب شيئاً لم ير عليه سرعة ، فالترتل إنما هو حضور القلب وكمال المعرفة^(٤).

قال الزركشي: "فحق على كل امرئ مسلم قرأ القرآن أن يرتله ؛ وكمال ترتيله تفخيم ألفاظه والإبانة عن حروفه ، والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل لكل ما بعده ، وأن يسكت بين النفس والنفس حتى يرجع إليه نفسه ، وألا يدغم حرفاً في حرف ؛ لأن أقل ما في ذلك أن يسقط من حسناته بعضها ، وينبغي للناس أن يرغبوا في تكثير حسناتهم ؛ فهذا الذي وصفت أقل ما يجب من الترتيل ، وقيل : أقل ترتيل أن يأتي بما يبين ما يقرأ به ، وإن كان مستعجلاً في قراءته ، وأكملة أن يتوقف فيها ، ما لم يخرجها إلى التمديد والتمطيط ، فمن أراد أن يقرأ القرآن بكمال الترتيل فليقرأه على منازله ، فإن كان يقرأ تهديداً لفظ به لفظ المتهدد ، وإن كان يقرأ لفظ تعظيم لفظ به على التعظيم^(٥). وجاء في النشر اختلاف ؛ هل الأفضل الترتيل وقلة القراءة أم السرعة مع كثرة القراءة ؟ والصحيح هو أن الترتيل والتدبر مع قلة القراءة أفضل من السرعة مع كثرتها ؛ لأن المقصود من القرآن فهمه والتفقه فيه والعمل به ، وتلاوته وحفظه وسيلة إلى معانيه ، وقد أحسن بعض أئمتنا -رحمه الله- حين قال " إن ثواب كثرة القراءة أكثر عدداً ، فالأول كمن تصدق بجوهر عظيم أو أعتق عبداً قيمته نفيسة جداً ، والثاني كمن تصدق بعدد كثير من الدراهم أو أعتق عدداً من العبيد قيمتهم رخيصة^(٦)."

ولنا في رسول الله -ﷺ- أسوة حسنة ؛ فلقد أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وعلمه فكان خير معلم ، وها هو صلوات الله وتسليمه عليه يتعجل بتلاوة القرآن في ابتداء نزوله عليه ؛ مخافة نسيانه ؛ وليحفظ العدد الكثير منه ، فينهاه ربه -ﷻ- عن السرعة في القراءة ، ويأمره بالتأني والتمهل ؛ ويعلمه أن الطريق الأمثل

(١) الأقحوان نبت زهرة أصفر أو أبيض ، ورقه مؤلل كأسنان المنشار ، ومنه البابونج ، وكثر في الأدب العربي تشبيه الأسنان بالأبيض المؤلل منه ، وجمعه أقاح وأقاحي (المعجم الوسيط ٢٢/١ ، باب الهمزة ، الطبعة الثانية ، قام بإخراج هذه الطبعة د / إبراهيم أنيس ، د / عبد الحليم منتصر ، د / عطية الصوالى ، د / محمد خلف الله أحمد .

(٢) الكشف ٦٣٨/٤ .

(٣) إعراب القرآن للنحاس ٦٥/٥ .

(٤) مفاتيح الغيب للرازي المجلد ١٥ ، ١٥٣/٣٠ ، ١٥٤ ، بتصرف .

(٥) البرهان في علوم القرآن ٤٤٩/١ ، ٤٥٠ .

(٦) النشر في القراءات العشر ٢٠٨/١ ، ٢٠٩ ، بتصرف ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، أشرف على تصحيحه ومراجعتها للمرة الأخيرة الأستاذ على محمد الضباع .

لحفظ هذا الكتاب الجليل هو أن يقرأه بتدبر مع الدعاء لله أن يزداد منه فقها وعلماً وفهماً ، قال تعالى في سورة طه مخاطباً رسوله: " ولما تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إياك وحيه وقل رب زدني علماً" (١) أي سل الله زيادة في العلم دون الاستعجال بتلاوة الوحي فإن ما أوحى إليك يبقى لا محالة" (٢).

روى أن النبي -ﷺ- كان يقول: "اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علماً والحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار" (٣). وإذا كان هذا هو دعاء النبي -ﷺ- وهو الذي بعثه الله في الأميين ليعلّمهم الكتاب والحكمة ، ويعلمهم ما لا يعلمون " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون" (٤) فكان -ﷺ- خير معلم ؛ إذا تكلم كان أبلغ البالغين ، وأفصح الفاصحين وأحكم الحاكمين -ﷺ- فالأولى والأحرى بنا أن نزداد فهما وتدبرا وعلماً بهذا القرآن العظيم الذي لا يأتيه الباطل ولا يعتريه شك ولا ريب تنزيل من حكيم حميد . روى عن ابن مسعود أنه كان يدعو "اللهم زدني إيماناً و يقيناً وفهماً" ، أو قال: "وعلماً" (٥).

ولقد صار النبي -عليه الصلاة والسلام- على المنهج الذي علمه الله إياه ، بتدبر القرآن ، فضرب لنا أعظم الأمثلة في تدبره وتفهمه ، وسأذكر منها البعض على سبيل المثال لا الحصر ؛ لتكون لنا عوناً ومثلاً في حفظ القرآن وتدبره .. منها: ما روى عن أحد الصحابة: " صليت مع النبي -ﷺ- ذات ليلة فافتتح البقرة ، فقلت : يركع عند المائة ، ثم مضى ، فقلت : يصلى بها في ركعة" (٦) فمضى فقلت : يركع بها ، ثم افتتح آل عمران فقرأها ، ثم افتتح النساء فقرأها ، يقرأ مترسلاً ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ ، ثم ركع فجعل يقول : " سبحان ربّي العظيم " فكان ركوعه نحواً من قيامه ، ثم قال : " سمع الله لمن حمده " ثم قام طويلاً قريباً مما ركع ، ثم سجد فقال " سبحان ربّي الأعلى " فكان سجوده قريباً من قيامه" (٧).

(١) سورة طه ، الآية: ١١٤ .

(٢) تفسير المراغي ١٥٥/١٦ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات ، باب في العفو والعافية ٥٧٨/٥ وقال الترمذي ، هذا حديث غريب من هذا الوجه والحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- وله شاهد في مجمع الزوائد للهيثمي ١٨١/١٠ مختصراً ، كتاب الأدعية ، باب الأدعية المأثورة عن رسول الله -ﷺ- التي دعا بها وعلمها والحديث مروى عن أنس بن مالك .

(٤) سورة البقرة ، الآية: ١٥١ .

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٠٥/٩ رقم الحديث (٨٥٤٩) مكتبة العلوم والحكم ، الموصول ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣ م ، الطبعة الثانية ، المحقق حمد بن عبد المجيد السلفي ، كما ذكره الهيثمي ، كتاب الأدعية ، باب أدعية الصحابة ١٨٥/١٠ وقال إسناده جيد .

(٦) معناه ظننت أنه يسلم بها فيقسمها على ركعتين ، وأراد بالركعة الصلاة بكاملها وهي ركعتان ولابد من هذا التأويل فينتظم الكلام بعده ، وعلى هذا فقوله " ثم مضى " معناه قرأ معظمها بحيث غلب على ظني أنه لا يركع الركعة الأولى إلا في آخر البقرة فحينئذ قلت يركع الركعة الأولى بها فجاوز وافتتح النساء صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل (٦١/٦)

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل ٥٣٦/١ ، ٥٣٧ ، رقم الحديث (٧٧٢) عن حذيفة .

وروى عن عبد الله ، قال : قال لي النبي -ﷺ- أقرأ على ، قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ ! قال : "فإني أحب أن أسمع من غيري " فقرأت عليه سورة النساء ، حتى بلغت " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " قال : (أمسك) فإذا عيناه تذرفان^(١)^(٢).

قال الإمام القسطلاني في شرح الحديث : "يحتمل أن يكون أحب أن يسمعه من غيره ؛ ليكون عرض القرآن سنة ؛ أو ليندبره ويفهمه ؛ وذلك أن المستمع أقوى على التدبر ؛ ونفسه أخلى وأنشط لذلك من القارئ ؛ لانشغاله بالقراءة وأحكامها وهذا بخلاف قراءته-ﷺ- على أبي بن كعب فإنه أراد أن يعلمه كيفية أداء القراءة ومخارج الحروف"^(٣). وعن أنس أنه سئل عن قراءة النبي -ﷺ- فقال : كانت مدا ، ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم يمد بسم الله ، ويمد بالرحمن ، ويمد بالرحيم"^(٤). ولقد وضع لنا النبي -ﷺ- أن قارئ القرآن في ترتل وتمهل يرتقى به في الدرجات العلا يوم القيامة ، فقد روى أن النبي -ﷺ- قال : يقال : لصاحب القرآن^(٥) أقرأ وارتنق^(٦) ورتل^(٧) كما كنت ترتل في الدنيا^(٨) فإن منزلك عند آخر آية تقرؤها"^(٩).

ولقد اقتدى الصحابة رضوان الله عليهم والتابعون من بعدهم برسول الله -ﷺ- في تدبره للقرآن ، فتدبروا آياته ، وفهموا معانيه ، فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، فقد روى عن ابن مسعود أن رجلا قال

(١) بالذال المعجمة وكسر الراء (خير المبتدأ) وهو عيناه (وإذا) للمفاجأة أي تطلقان معهما ، وبكاؤه ، عليه الصلاة والسلام ، على المفرطين ، أو لعظم ما تضمنته الآية : من هول المطلاع ، وشدة الأمر ، أو هو بكاء فرح لا بكاء جزع ، لأنه تعالى جعل أمته شهداء على سائر الأمم (إرشاد الساري بشرح صحيح البخاري للعلامة أبي العباسي شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ) كتاب تفسير القرآن ٨٣/٧ ، دار صادر الطبعة السادسة بالمطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٣٠٥ هـ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب التفسير باب (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا) ١٣٩٤/٣ ، كما أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل استماع القرآن ، وطلب القراءة من حافظ للاستماع ، والبقاء عند القراءة والتدبر ، ٥٥١/١ ، بلفظ " قال لي رسول الله -ﷺ- " أقرأ على القرآن " قال ، فقلت ، يا رسول الله ! أقرأ عليك ، وعليك أنزل ؟ قال ، " إني أشتي أن أسمع من غيري " فقرأت النساء حتى إذا بلغت " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا " رفعت رأسي أو غمزني رجل إلى جنبى فرفعت رأسي فرأيت دموعه تسيل " .

(٣) إرشاد الساري ٨٣/٧ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب فضائل القرآن باب (مد القراءة) ١٦٢٥/٤ رقم الحديث (٥٠٥٨) .

(٥) أي من يلزمه بالتلاوة والعمل تحفة الأحوذى ٢٣٢/٨ .

(٦) أمر من رقى يرقى أي صعد إلى درجات الجنة ، يقال ، رقى الجبل وفيه وإليه رقى أي صعد تحفة الأحوذى ٢٣٢/٨ .

(٧) أي اقرأ بالترتيل ولا تستعجل بالقراءة تحفة الأحوذى ٢٣٢/٨ .

(٨) من تجويد الحروف ومعرفة الوقوف تحفة الأحوذى ٢٣٢/٨ .

(٩) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة ، باب استحباب الترتيل في القراءة ٧٣/٢ عن عبد الله بن عمرو ، ط دار الفكر ، كما أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب فضائل القرآن باب (١٨) ١٧٧/٥ رقم الحديث (٢٩١٤) وقال أبو عيسى ، هذا

حديث حسن صحيح ط دار الحديث القاهرة تحقيق إبراهيم عطوة .

له : إني لأقرأ المفصل في ركعة ، فقال عبد الله : هذا^(١) كهذه الشعر إن أقوما يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع^(٢) قال النووي : "في هذا الحديث النهي عن الهذ ، والحث على الترتيل والتدبر ، وبه قال جمهور العلماء ، ومعناه : أن أقوما ليس حظهم من القرآن إلا مروره على اللسان لا يجاوز تراقيهم ليصل قلوبهم ، وليس ذلك هو المطلوب بل المطلوب تعقله وتدبره بوقوعه في القلب"^(٣).

وفي النهاية : "المعنى أن قراءتهم لا يرفعها الله ، ولا يقبلها ؛ فكأنها لم تتجاوز حلقهم ، وقيل المعنى أنهم لا يعملون بالقرآن ولا يثابون على قراءته فلا يحصل لهم غير القراءة"^(٤) وروى أيضا عن عبد الله بن مسعود أنه قال : "لا تهذوا القرآن هذ الشعر ، ولا تنثروه نثر الدقل"^(٥) وقفوا عند عجائبه ، وحركوا به القلوب ، ولا يكن هم أحدكم آخر السورة"^(٦) ، ويوضح لنا محمد بن كعب القرظي أن قراءة القليل من القرآن في تدبر وتفكر خير من قراءة الكثير منه بدون فهم وتأمل ، فيقول : "لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت والقارة ، لا أزيد عليهما ، وأتردد فيهما ، وأفكر ، أحب إلى من أن أهد القرآن ليلتي هذا ، أو قال انثره نثرا"^(٧). وغير ذلك من الأحاديث والآثار التي تدل كلها على وجوب التدبر في كلمات الله ، وفهم معانيها ، للوصول إلى ما فيها من البراعة والبلاغة والفصاحة والتي لا يمكن إدراكها بمجرد القراءة السريعة ، ولقد ذكر الإمام الزركشي مقامات الناس في تلاوة القرآن ، فقال : "الناس في تلاوة القرآن ثلاثة مقامات :

الأول : من يشهد أوصاف المتكلم في كلامه ومعرفة معاني خطابه ، فتتظر إليه من كلامه ، وتعلمه بخطابه ، وتمليه بمناجاته ، وتعرفه من صفاته ، فإن كل كلمة تنبئ عن معنى اسم ، أو وصف ، أو حكم ، أو إرادة ، أو فعل ؛ لأن الكلام ينبئ عن معان الأوصاف ، ويدل على الموصوف ، وهذا مقام العارفين من المؤمنين ؛ لأنه لا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعلق الإنعام به من حيث أنه منعم عليه بل هو مقصور الفهم عن المتكلم ، موقوف الفكر عليه ، مستغرق بمشاهدة المتكلم.

(١) هو بتشديد الذال وهو شدة الإسراع والإفراط في العجلة^(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٥/٦.

(٢) صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ ، وهو الإفراط في السرعة وإياحة سورتين فأكثر في ركعة ٥٦٣/١ رقم الحديث ٧٢٢ والحديث طويل اقتصرته فيه على محل الشاهد .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٠٥/٦.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٨٧/١ باب التاء مع الراء.

(٥) الدقل ، رديء التمر ويابس وما ليس له اسم خاص فتراه لبيسه ورداءته لا يجتمع ويكون منثورا^(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٢٧/٢ باب الدال مع القاف .

(٦) شعب الإيمان للبيهقي ، باب في تعظيم القرآن ، فصل في إحضار القارئ قلبه ما يقرأه ٣٦٠/٢ رقم الحديث (٢٠٤١) .

(٧) الزهد لعبد الله بن المبارك بن واضح المرزوي أبو عبد الله المتوفى عام ١٨١ ص ٩٧ ، باب الاعتبار والتفكير دار الكتب العلمية بيروت تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي .

الثاني: من يشهد بقلبه كأنه -تعالى- يخاطبه ويناجيه بأطافه ، ويتملقه بإنعامه وإحسانه ، فمقام هذا الحياء والتعظيم ، وحاله الإصغاء والفهم ، وهذا لعموم المقربين .

الثالث : من يرى أنه يناجي الله سبحانه ، فمقام هذا السؤال والتمكن ، وحاله الطلب ، وهذا مقام لخصوص أصحاب اليمين ، فإذا كان العبد يلقي السمع من بين يدي مسمعه ، مصغيا إلى سر كلامه ، شهيد القلب لمعاني صفاته ، ناظرا إلى قدرته ، تاركا لمعقوله ، ومعهود علمه ، متبرئا من حوله وقدرته ، معظما للمتكلم ، متفرغا إلى الفهم ، بحال مستقيم ، وقلب سليم ، وصفاء يقين ، وقوة علم ، وتمكين سمع ، فصل الخطاب ، وشهد غيب الجواب ؛ لأن الترتيل في القرآن ، والتدبر لمعاني الكلام ، وحسن الاقتصاد إلى المتكلم في الإفهام والإيقاف على المراد وصدق الرغبة في الطلب ، سبب للإطلاع على المطلع من المسر المكنون المستودع وبعد أن وضح هذه المقامات قال: في القرآن ميادين وبساتين ، وعرائس ، وديباج ، ورياض ، فالميمات ميادين القرآن ، والراءات بساتين القرآن ، والحاءات مقاصير القرآن ، والمسبحات عرائس القرآن ، والحواميم ديباج القرآن ، والمفصل رياضة ، وما سوى ذلك ، فإذا دخل المرید في الميادين ، وقطف من البساتين ، ودخل المقاصير ، وشهد العرائس ، ولبس الديباج ، وتنتزه في الرياض ، وسكن غرفات المقامات ، اقتطعه عما سواه ، وأوقفه ما يراه ، وشغله بمشاهد له عما عداه ، ولذلك قال النبي -ﷺ-: "اعرفوا القرآن والتمسوا غرائبه ؛ وغرائبه فروضه وحدوده ، فإن القرآن على خمسة : حلال ، حرام ، ومحكم ، وأمثال ، ومتشابه ، فخذوا الحلال ودعوا الحرام ، واعملا بالمحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال (١) (٢) .

ولهذه الغرائب والحدود والفروض التي اشتملت عليها آيات القرآن نزل القرآن الكريم على رسول الله -ﷺ- منجما ، فلم ينزل جملة واحدة كالكتب السابقة ، ولقد ذكر العلماء لتنجيم نزول القرآن الكريم أسراراً عدة وحكما كثيرة منها:

الحكمة الأولى تثبیت فؤاد النبي -ﷺ- وتقوية قلبه : قال تعالى: "وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا" (٣) وهذا التثبيت تمثل في وجوه:

الوجه الأول: أن في تجدد الوحي وتكرار نزول الملك به من جانب الحق إلى رسوله -ﷺ- سرور يملأ قلب الرسول ، وغبطة تشرح صدره ، وكلاهما يتجدد عليه بسبب ما يشعر به من هذه العناية الإلهية ، وتعهده مولاه في كل نوبة من نوبات هذا النزول .

(١) الحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٤٢٧/٢ بلفظ " أعربوا القرآن وأتبعوا غرائبه الحديث . " ، باب في تعظيم القرآن فصل في قراءة القرآن بالتفخيم والإعراب .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٤٥٢/١ وما بعدها بتصرف .

(٣) سورة الفرقان ، الآية: ٣٢ .

الوجه الثاني : أن في التجسيم تيسيرا عليه من الله في حفظه وفهمه ومعرفته أحكامه وحكمه ، وذلك مطمئن له على وعى ما يوحى إليه حفظا وفهما وأحكاما وحكما ، كما أن فيه تقوية لنفسه الشريفة على ضبط ذلك كله.

الوجه الثالث: أن في كل نوبة من نوبات هذا النزول المنجم معجزة جديدة غالبا ، حيث تحداهم كل مره أن يأتوا بمثل نوبة من نوب التنزيل ، فظهر عجزهم عن المعارضة ، وضافت عليهم الأرض بما رحبت ، ولاشك أن المعجزة تشد أزره ، وترهف عزمه ، باعتبارها مؤيدة له ولحزبه ، خاذلة لأعدائه ولخصمه.

الوجه الرابع : أن في تأييد حقه ، ودحض باطل عدوه المرة بعد الأخرى تكرار للذة فوزه ، وفلجه بالحق والصواب ، وشهوده لضحايا الباطل في كل مهبط للوحي والكتاب ، وإن كل ذلك إلا مشجع للنفس ، مقو للقلب والفؤاد.

الوجه الخامس : تعهد الله إياه عند اشتداد الخصام بينه وبين أعدائه بما يهون عليه هزة الشدائد ، ولا ريب أن تلك الشدائد كانت تحدث في أوقات متعددة ، فلا جرم كانت التسلية تحدث هي الأخرى في مرات متكافئة ، وكلما أخرج خصمه سلاه ربه.

الحكمة الثانية من نزول القرآن منجما: التدرج في تربية هذه الأمة الناشئة علما وعملا ، وينضوي تحت هذا الإجمال أمور خمسة : أولها : تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهي كما علمت كانت أمة أمية وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منهم على ندرتهم ، وكانت مشغلة بمصالحها المعاشية ، وبالدفاع عن دينها الجديد بالحديد والدم ، فلو نزل القرآن جملة واحدة ؛ لعجزوا عن حفظه ، فاقتضت الحكمة العليا أن ينزله الله إليهم مفرقا ؛ ليسهل عليهم حفظه ؛ ويتهيأ لهم استظهاره ، ثانيها : تسهيل فهمه عليهم كذلك ، مثل ما سبق في توجيه التيسير في حفظه ، ثالثها : التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة ، وعبادتهم الفاسدة، وعاداتهم المردولة ؛ فكلما نجح الإسلام معهم في هدم الباطل ، انتقل بهم إلى هدم آخر ، وهكذا يبدأ بالأهم ثم المهم ؛ حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها ، وهم لا يشعرون بعنت ولا حرج ، رابعها : التمهيد لكمال تحليهم بالعقائد الحقة ، والعبادات الصحيحة ، والأخلاق الفاضلة بمثل تلك السياسة الرشيدة السابقة ، فبدأ بفطامهم عن الشرك والإباحة ، وإحياء قلوبهم بعقائد التوحيد والجزاء ، ثم انتقل بهم بعد هذه المرحلة إلى العبادات ، فبدأهم بالصلاة قبل الهجرة ، وثنى بالزكاة ، وبالصوم في السنة الثانية من الهجرة ، وختم بالحج في السنة السادسة منها ، وكذلك كان الشأن في العادات ، زجرهم عن الكبائر ، وشدد النكير عليهم فيها ، ثم نهاهم عن الصغائر في شيء من الرفق ، وتدرج بهم في تحريم ما كان مستأصلا فيهم كالخمر.. تدرجا حكيما حقق الغاية ، وأنقذهم من كابوسها في النهاية ، خامسها : تثبيت قلوب المؤمنين ، وتسليحهم بعزيمة الصبر واليقين بسبب ماكان يقصه القرآن الحين بعد الحين من قصص الأنبياء والمرسلين ، وما كان لهم

ولأتباعهم من الأعداء والمخالفين ، وما وعد الله به عباده الصالحين من النصر والاجر والتأييد والتمكين ، وهذه الحكمة مشار إليها في قوله تعالى: "وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا" (١) أى لتقرأه على الناس فى تمهل وتريث ، وتؤدة لا على الفور ، والسرعة والعجلة ، قال الراغب : "المكث : ثبات مع انتظار ، ويقال مكث مكثا" (٢) وقال الإمام الرازي " إنما فرقه ؛ ليكون حفظه أسهل ؛ ولتكون الإحاطة والوقوف على دقائقه وحقائقه أسهل" (٣) وقال القرطبي: "أنزلناه نجما بعد نجم ؛ ولو أخذوا بجميع الفرائض فى وقت واحد لنفروا" (٤)

الحكمة الثالثة من حكم التنزيل المنجم : مسايير الحوادث والطوارئ فى تجدها وتفرقها فكلمنا جد منهم جديد ، ينزل من القرآن ما يناسبه ، وفصل الله لهم من أحكامه ما يوافقه ، وتتنظم هذه الحكمة أمورا أربعة ، أولها : إجابة السائلين عن أسئلتهم عندما يوجهونها إلى الرسول -ﷺ- سواء أكانت تلك الأسئلة لغرض التنبيه من رسالته كما قال الله تعالى فى جواب سؤال أعدائه إياه: "ويسألك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا" (٥) أم كانت لغرض التنوير ، ومعرفة حكم الله ، كقوله تعالى فى سورة البقرة: " ويسألك ماذا ينفقون قل العفو" (٦) ولا ريب أن تلك الأسئلة كانت ترفع إلى النبي فى أوقات مختلفة ، ثانيها : مجارة الأفضية والوقائع فى حينها ببيان حكم الله فيها عند حدوثها ووقوعها ، ومعلوم أن تلك الأفضية والوقائع لم تقع جملة ، بل وقعت تفصيلا وتدريجا ، والأمثلة على هذا كثيرة منها قوله -سبحانه- فى سورة النور: " إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم " إلى قوله سبحانه " أولئك مبرؤون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم" (٧) وهن آيات نزلن فى حادث من أروع الحوادث وهو اتهام السيدة الجليلة أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- بالإفك ، ثالثها : لفت أنظار المسلمين إلى تصحيح أغلاطهم التي يخطئون فيها ، وإرشادهم إلى شاكلة الصواب فى الوقت نفسه ، ولا ريب أن تلك الأغلاط كانت فى أزمان متفرقة ، اقرأ إن شئت قوله سبحانه فى سورة (آل عمران): "وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال" (٨) إلى آيات كثيرة بعدها ، وكلها نزلت فى غزوة أحد ، إرشادا للمؤمنين إلى مواضع أخطائهم فى هذا الموقف الرهيب ، والمأزق العصيب ، رابعها : كشف حال أعداء الله المنافقين ، وهتك أستارهم وسرائرهم للنبي والمسلمين ؛ كي ما يأخذوا منهم حذرهم فيأمنوا شرهم ؛ وحتى يتوب من شاء منهم ، اقرأ إن شئت قوله تعالى من سورة البقرة: "ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما

(١) سورة الإسراء ، الآية: ١٠٦ .

(٢) المفردات فى غريب القرآن ، ص ٤٧١ ، كتاب الميم .

(٣) مفاتيح الغيب للرازي المجلد الحادي عشر ٥٧/٢١ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد الخامس ٢٢٠/١٠ .

(٥) سورة الإسراء ، الآية: ٨٥ .

(٦) سورة البقرة ، من الآية: ٢١٩ .

(٧) سورة النور ، الآيات: ١١ : ٢٦ .

(٨) سورة آل عمران ، من الآية: ١٢١ .

هم بمؤمنين "إلى قوله" إن الله على كل شيء قدير"^(١) كما فضحتهم سورة التوبة في كثير من الآيات ، وكما كشف القرآن أستارهم في كثير من المناسبات .

الحكمة الرابعة الإرشاد إلى مصدر القرآن: وأنه كلام الله وحده ، وأنه لا يمكن أن يكون كلام محمد ﷺ ولا كلام مخلوق سواه ، وبيان ذلك أن القرآن تقرأه من أوله إلى آخره ، فإذا هو محكم السرد ، دقيق السبك ، متين الأسلوب ، قوى الاتصال ، أخذ بعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله ، يجرى دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة ، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ، ولا تخاذل كأنه حلقة مفرغة ! أو كأنه سمط وحيد ، وعقد فريد ، يأخذ بالأبصار ، نظمت حروفه وكلماته ، ونسقت جملة آياته ، وجاء آخره مساوفاً لأوله ، وبدا أوله موافقاً لآخره!!^(٢). هذه هي أهم أسرار تنجيم القرآن الكريم وغيرها الكثير والكثير ؛ قد لا يسعنا المقام لذكرها ، فالحديث عنها يحتاج إلى مجلدات ... لكن ما يهمنا في هذا المقام أن نعلم أن القرآن الكريم إنما نزل منجماً ولم ينزل جملة واحدة ليرشدنا الله إلى أن ما فيه من الإعجاز لا يدرك إلا بالتمهل في تلاوته والتدبر في معانيه.

وفي ختام هذا المبحث ؛ يجب أن نعلم أن من الواجب على كل مؤمن ومؤمنة تدبر القرآن واستنباط أحكامه ؛ حتى لا يفوتنا الخير العظيم ، والثواب الجليل في الدنيا والآخرة .

ثالثاً: التائي والتبين عند تلقي الأخبار:

ومن أهم تلك الأمور التي يجب فيها التائي: التائي عند تلقي الأخبار ؛ فإذا جاءنا رجل عرف بالصلاح نقبل خبره ما لم يكن الخبر مستغرباً ، فإذا كان مستغرباً وانفرد به عن الناس ، أو كان الخبر يعارض ثوابت مدعمة بالأدلة ، أو كان الرجل بينه وبين قوم عداوة ونقل عنهم خبراً ، أو كان معروفاً بالسرعة في تلقي الأخبار ونشرها وغير ذلك من تلك الأمور فيجب علينا عندئذ التبين والتثبت من الخبر ، ولقد أمرنا الله ﷻ بالتبين من خبر الفاسق فقال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين"^(٣).

وسبب نزول هذه الآية ما روى عن الحارث بن ضرار الخزاعي قال: قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام ، فأقررت به ، ودخلت فيه ؛ ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها ، وقلت يا رسول الله: أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن استجاب لي جمعت زكاته ، فيرسل إلي رسول الله ﷺ رسولاً لإبان كذا وكذا ، ليأتيك ما جمعت من الزكاة ، فلما جمع الحارث الزكاة ممن

(١) سورة البقرة ، الآيات: ٨ : ٢٠ .

(٢) بنظر لهذه الحكم في مناهل العرفان في علوم القرآن ٥٣/١ : ٦٠ ، ومفاتيح الغيب المجلد الثاني عشر ٢٤ / ٢٦٩ وغرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣٦٧/٨ ، والتفسير المنير ٥٩/١٩ .

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٦ .

استجاب له ، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله -ﷺ- أن يبعث إليه ، احتبس الرسول فلم يأتيه ، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سخطه من الله -ﷻ- ورسوله -ﷺ- فدعا مسرورات قومه فقال لهم : إن رسول الله -ﷺ- كان وقت وقتا يرسل إلى رسوله يقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله -ﷺ- الخلف ، ولا أدرى حبس رسوله إلا من سخطه كانت ، فانطلقوا فنأتي رسول الله -ﷺ- وبعث رسول الله -ﷺ- الوليد بن عقبة^(١) ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق ، فرجع فأتى رسول الله -ﷺ- فقال : إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي ، فضرب رسول الله -ﷺ- البعث إلى الحارث ، وأقبل الحارث بأصحابه إذا استقبل البعث ، وفصل من المدينة فلقبهم الحارث فقالوا : هذا الحارث ، فلما غشيهم قال لهم : أين بعثتم؟ قالوا : إليك ، قال ولم؟ قالوا : إن رسول الله -ﷺ- كان قد بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعه الزكاة وأردت قتله ، قال : لا ! والذي بعث محمدا بالحق ما رأيته البتة ولا أأتاني ، فلما دخل الحارث على رسول الله -ﷺ- قال : "منعت الزكاة وأردت قتل رسولي" ، قال : لا والذي بعثك بالحق ما رأيته البتة ولا أأتاني وما احتبست إلا حين احتبس على رسول الله -ﷺ- حسبت أن يكون كانت سخطه من الله -ﷻ- ورسوله ، قال : فنزلت الحجرات ليا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين إلى قوله (فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم)^(٢) (٣).

وقد علق الإمام الرازي على هذه الرواية قائلا : "وهذا جيد إن قالوا بأن الآية نزلت في ذلك الوقت ، وأما إن قالو بأنها نزلت لذلك مقتصر عليه ، ومتعديا إلى غيره فلا ، بل نقول هو نزل عام لبيان التثبت وترك الاعتماد على قول الفاسق ، ويدل على ضعف قول من يقول إنها نزلت لكذا ، أن الله تعالى لم يقل إني أنزلتها لكذا ، والنبي -ﷺ- لم ينقل عنه أنه بين أن الآية وردت لبيان ذلك فحسب ، غاية ما في الباب أنها نزلت في ذلك الوقت ، وهو مثل التاريخ لنزول الآية ، ونحن نصدق ذلك"^(٤).

ومراد الإمام الرازي أن الآية لم تنزل لهذا السبب ، بل هي عامة ، نزلت دعوة للتثبت من خبر الفاسق وليست مختصة بهذه الواقعة ، يقول د/ عبد الكريم الخطيب : "وأيا كان سبب النزول ، فإن الآية عامه مطلقة ، تحذر المسلمين من الأنباء الكاذبة التي يرجف بها المرجفون ليشيعوا في المسلمين قالة

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط بن أبي عمرو زكوان بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي أخو عثمان بن عفان لأنه يكنى أبا وهب ، قتل أبوه بعد الفراغ من غزوة بدر ، وكان شديدا على المسلمين كثير الأذى لرسول الله -ﷺ- أسلم الوليد وأخوه عماره يوم الفتح ، وكان الوليد شجاعا شاعرا جواد ، روى عن النبي وعن عثمان وغيره ، وروى عنه حارثة بن مضرب ، والشعبي ، وأبو موسى الهمداني وغيرهم ، ومات في خلافة معاوية الإصافية في تمييز الصحابة لابن حجر ٦١٤/٦ وما بعدها. وانظر الطبقات الكبرى لمحمد بن سعد ٤٧٦/٧ ط دار صادر بيروت.

(٢) سورة الحجرات ، الآيات : ٦ : ٨.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ٢٧٤/٣ ، كما أخرجه أحمد في مسنده ٢٧٩/٤ ، ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمعه ١٠٩/٧ ، وينظر أسباب النزول للواحدى ص ٢٧٧ ، دار مكتبة الهلال ، بيروت.

(٤) مفاتيح الغيب - للرازي المجلد الرابع عشر ١٠٣/٢٨.

السوء ؛ وليوغروا بها صدورهم على أهل الإيمان، والسلامة فيهم ، وأن هذا من شأنه لو وقع موقع القبول والتسليم من المؤمنين من غير تبصر أو تمحيص ؛ لأفسد عليهم أمرهم ؛ ولنزع الثقة والطمأنينة من بينهم .. فما أكثر ما كان يلقي به المنافقون واليهود في محيط المسلمين من أكاذيب وأراجيف وشائعات ، الأمر الذي يقضى على المسلمين بأن يحصوا هذه الأخبار ، وألا يأخذوها مأخذ القبول والتسليم دون نظر فاحص لها^(١). والخطاب في هذه الآية شامل للنبي -ﷺ- والمؤمنين من أمته الكاملين منهم محاسن آداب وغيرهم^(٢).

وفي هذه الآية نكتة لطيفة هي "التعبير بحرف الشرط الذي لا يذكر إلا مع التوقع في قوله: "إن جاءكم" وذلك لبيان أن المؤمن موصوف بأنه شديد على الكافر غليظ عليه ؛ فلا يتمكن الفاسق من أن يخبره نبأ ، فإن تمكن منه يكون نادرا"^(٣). قال الله تعالى: "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم..... الآية"^(٤). والفسق: "بمعنى الخروج يقال: فسق فلان خرج عن حجر الشرع ، وذلك من قوله فسق الرطب إذا خرج عن قشره وهو أعم من الكفر، والفسق يقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به، ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضه ، وإذا قيل للكافر الأصلي فاسق ؛ فلأنه أخل بحكم ما ألزمه العقل واقتضته الفطرة"^(٥).

ويستخلص من هذا التعريف اللغوي أن الفاسق هو: الخارج عن حدود ما التزمه الشرع ، قال القشيري -رحمه الله-: "الفاسق هو الخارج عن الطاعة ، ويقال هو الخارج عن حد المروءة ، ويقال هو الذي ألقى جلباب الحياء"^(٦).

ولا ضير فإن الفاسق يشمل كل هذه الصفات المذمومة ؛ فهو الخارج عن طاعة الله ، وخارج عن المروءة والنخوة ، وهو من ألقى لباس الأدب والحياء ، وهذا كله خروج عن حدود الشرع والدين. وأما النبأ فهو : "خبر ذو فائدة عظيمة ، يحصل به علم أو غلبة ظن ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ حتى يتضمن هذه الأشياء الثلاثة"^(٧). وتكثير "فاسق ونبأ" ووقوعهما في سياق الشرط ؛ يفيد العموم في الفاسق

(١) التفسير القرآني للقرآن المجلد السابع ٢٦/٤٤٠، ٤٤١ دار الفكر العربي.

(٢) روح المعاني ٢٦/١٤٥.

(٣) مفاتيح الغيب المجلد السابع عشر ٢٨/١٠٣. بتصرف.

(٤) سورة الفتح ، من الآية: ٢٩.

(٥) مجمع البيان الحديث ، تفسير مفردات ألفاظ القرآن ، سميح عاطف الزين ، ص ٦٦٢، دار الكتاب اللبناني بيروت ، لبنان.

(٦) لطائف الإشارات ٣/٤٣٩.

(٧) مفردات ألفاظ القرآن ، سميح عاطف الزين ، ص ٨٢٩.

بأي فسق اتصفوا ، وفي الأنبياء كيف كانت ، كأنه قيل أي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه ، وتطلبوا بيان الأمر وانكشافه^(١).

وقد يتساءل سائل إذا كانت هذه الآية عامة في الدعوة إلى التبين في الخبر فلماذا خص الفاسق بالذكر؟ والجواب: لأنه مظنة الكذب ، وهذا ما يوضحه الشيخ سيد قطب قائلا: "تخصيص الفاسق ؛ لأنه مظنة الكذب ؛ وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء ؛ فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها ، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقته ، وأن تكون أنبأؤها مصدقة مأخوذة بها ، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره ، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطا بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء ، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق ، فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع ، فتتدم على ارتكابها ما يغضب الله ، ويجانب الحق والعدل في اندفاع"^(٢).

فالواجب واللائق بحال الجماعة المسلمة التأني والتبين من الأخبار عند تلقيها وهو ما أمر الله به في قوله "فتبينوا" فلقد دعي المولى -عليه السلام- إلى التبين والصبر وعدم الاستعجال عند تلقي الخبر، خاصة إذا كان في أمر هام وخطير كما في هذه الواقعة ، فلو لا تثبت النبي وتأنيه بإرسال واحد منهم ؛ لكي يتأكد من صحة الخبر ، لوقعت الحروب ، وشنت الفتن ، ولأصابوا قوما بظلم ، وبغير وجه حق ، وهو ما أشار إليه بقوله : أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ، فالعجلة دائما ما يعقبها الندم والحسرة "ف قوله تعالى: أن تصيبوا تعليل للأمر بالتبين ، أي فتبينوا كراهة أن تصيبوا ، أو لئلا تصيبوا ، ومعنى قوله تعالى " بجهالة " أي ملتبسين بجهالة لحالهم"^(٣). "فالجهالة هنا ليست من الجهل المناقض للعلم ، لكنها من الجهل المقابل للحلم والاعتزان والموضوعية، الجهالة هنا هي الخفة والطيش الناتجة عن العجلة والتسرع والاندفاع والعاطفية والسير وراء الخبر الكاذب الذي قدمه ذلك الفاسق^(٤) فلو أن الجيش الإسلامي اشتبك مع الذين قيل فيهم ذلك ، ثم ظهر لهم براءتهم لأصبحوا نادمين على ما فعلوا في حقهم ، ومعنى "نادمين" غما لازما متمنين أنه لم يقع ، فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه"^(٥). قال الجرجاني: الندم هو: "غم يصيب الإنسان ويتمنى أن ما وقع منه لم يقع"^(٦).

(١) التحرير والتنوير ٢٣١/٢٥.

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ٣٣٤١/٢٦.

(٣) روح المعاني ١٤٧/٢٦.

(٤) التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق ، د/صلاح عبد الفتاح الخالدي ، ص ١٤٥ ، ط الأولى ١٤٤٨ هـ ، ١٩٩٧ م ، دار النفائس.

(٥) روح المعاني ١٤٧/٢٦.

(٦) التعريفات للجرجاني ص ٣٠٨ باب النون ، دار الكتاب العربي

يقول د/عبد الكريم الخطيب موضحاً ما يعقب الاستعجال من الندم خاصة عند تلقى خبر من فاسق: "الأخذ بالنبا الوارد من فاسق قبل التثبت منه يعود على المسلمين بالحسرة والندم ؛ لأنهم وضعوا الأمر في غير موضعه ، ورتبوا على هذا القول الكاذب أموراً لا يمكن إصلاحها بعد أن وقع عليها ما وقع"^(١) ويبدو أن بعض المسلمين في هذا الواقعة اندفعوا وأرادوا الحرب وأشاروا على رسول الله -ﷺ- بذلك ، إلا أن النبي من شأنه ودأبه التأني في جميع أموره ، فلولا لشدت الحروب ؛ ولهذا قال المولى: "واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم"^(٢) (٣).

وهذا يوضح لنا أن أقرب الطرق للتأني والتثبت هو الرجوع إلى سنة رسول الله -ﷺ- ومنهاجه فهو المبين المرشد المنبئ عن المولى -ﷺ- وهو أعلم الناس بمصالح أمته وأشفق عليهم من أنفسهم ، قال تعالى: "النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم"^(٤) فعلى المؤمنين الرجوع إليه قبل الاندفاع في الأمور لاسيما وقد كان -ﷺ- متأنياً مترثياً ، فلقد ضرب لنا أعظم الأمثلة في التأني والترث عند تلقيه أى خبر ، فها هو رسول الله -ﷺ- يسأل حاطب بن أبى بلتعة^(٥) عندما صدر منه ما صدر من إرسال رسالة إلى المشركين يخبرهم فيها بأمر رسول الله -ﷺ- فيقول له رسول الله : "يا حاطب ما حملك على ما صنعت ؟"^(٦) فهذا

(١) التفسير القرآني للقرآن، المجلد السابع ٤٤١/٢٦.

(٢) سورة الحجرات ، من الآية: ٧.

(٣) العنت ، المشقة والشدة . (المغرب فى ترتيب المغرب) لأبى الفتح ناصر الدين بن عبد السيد على بن المطرز ٨٤/٢ باب العين ، مكتبة أسامة بن زيد ، حلب ١٩٧٩ ط الأولى تحقيق محمود فاخورى ، وعبد الحميد مختار.

(٤) سورة الأحزاب ، من الآية: ٦.

(٥) حاطب بن أبى بلتعة بن عمرو بن عمير بن سلمة بن مصعب ، حليف بنى أسد بن عبد العزى ، اتفقوا على شهوده بدر ، وفيه أنزل قوله -تعالى-، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء.....الآيات ، مات سنة ثلاثين فى خلافة عثمان وله خمس وستون سنة ينظر الإصابة ٤/٢ وما بعدها.

(٦) والحديث كما ذكره البخارى -رحمه الله- عن علي ، -رحمه الله- ، قال: بعثني رسول الله -ﷺ- والزبير وأبى مرثد وكننا فارس قال: "انطلقوا حتى تأتوا روضة حاج قال أبو سلمة: هكذا قال أبو عوانة (حاج) فإن فيها امرأة معها صحيفة من حاطب ابن أبى بلتعة إلى المشركين فأتوني بها " فانطلقنا على أفراسنا حتى أدركناها حيث قال لنا رسول الله -ﷺ- تسير على بعير لها وكان قد كتب إلى أهل مكة بمسير رسول الله -ﷺ- إليهم، فقلنا: أين الكتاب الذي معك ؟ قالت : ما معي كتاب! فأخنا بها بعيرها ، فابتغيها فى رحلها فما وجدنا شيئاً ، فقال لي صاحباي : ما نرى معها كتاباً ؟ قال : فقلت : لقد علمنا ما كذب رسول الله -ﷺ- ثم حلف على، والذي يحلف به لتخرجن الكتاب أو لأجر دنك، فأهوت إلى حبل لها وهى محتجزة بكساء فأخرجت الصحيفة فأتوا بها رسول الله -ﷺ- فقال عمر: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين ، دعنى فأضرب عنقه فقال رسول الله : "يا حاطب ما حملك على ما صنعت" ؟ قال: يا رسول الله مالي أن لا أكون مؤمناً بالله ورسوله ؟ ولكني أردت أن يكون لي عند القوم يد يدفع بها عن أهلي ومالي ، وليس من أصحابك أحد إلا وله هنالك من قومه من يدفع الله به عن أهله وماله، قال: "صدق ولا تقولوا له إلا خيراً" قال: فعاد عمر، فقال: يا رسول الله قد خان الله ورسوله والمؤمنين دعنى فلاضرب عنقه، قال: "أوليس من أهل بدر وما يدريك لعل الله اطع عليهم فقال اعملوا ما شئتم فقد أوجب لكم الجنة" فأغر ورقته عيناه فقال: الله ورسوله اعلم أخرجه البخارى في صحيحه واللفظ له ، كتاب

السؤال ينبغي أن يكون شعارا بين المؤمنين إذا فعل بعضهم لبعض شيئا مشينا ، فبدلا من أن يعامله بالعقوبة ، يسأله ما حملك على فعل هذا ، إقتداء برسولنا ﷺ - وهاهو أيضا رسول الله ﷺ - عندما صلى الظهر ركعتين وقام إليه رجل يقول : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فما كان من النبي ﷺ - أن يقبل قوله دون تبين وثبوت ، بل سأل أصحابه هل ما يقوله صدق أم لا ؟ فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ - إحدى صلاتي العشي^(١) إما الظهر وإما العصر ، فسلم في ركعتين ثم أخذ جذعا^(٢) في قبلة المسجد فاستند إليها مغضبا ، وفي القوم أبو بكر وعمر فهابا أن يتكلما ، وخرج سرعان^(٣) الناس : قصرت الصلاة ، فقام ذو اليمين^(٤) فقال : يا رسول الله أقصرت الصلاة أم نسيت ؟ فنظر النبي ﷺ - يمينا وشمالا فقال : "ما يقول ذو اليمين ؟" قالوا : صدق لم تصل إلا ركعتين ، فصلى ركعتين ثم كبر ، ثم سجد ، ثم كبر ، فرفع ، ثم كبر وسجد ، ثم كبر ورفع ، قال : وأخبرت عن عمران بن حصين أنه قال : وسلم^(٥) .

قال الإمام النووي - رحمه الله - : "إذا ادعى الواحد شيئا جرى بحضرة جمع كثير لا يخفى عليهم ، سئلوا عنه ولا يعمل بقوله من غير سؤال"^(٦) .

وكثير وكثير في هذا الباب من الأحاديث التي تحدث على وجوب التبين في نقل الأخبار ،، فيجب على المؤمن التثبت من الأخبار التي تصله ، لاسيما وإن كانت هذه الأخبار عن إخوانه من أهل التقوى والصلاح ، فالشائعات تنتشر أكثر عن أهل الإيمان والصلاح وهي شائعات لا أصل لها ، ولا أساس ، لكنها قد تجد من يروجها وقد يكون لها أضرار عظيمة ، فيجب على الإنسان توخي الحذر والحيلة عند

استنابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب ما جاء في المتأولين ٢١٦٦/٥ ، ٢١٦٧ ، كما أخرجه مسلم في صحيحه بمعناه ، كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أهل بدر ، وقصة حاطب بن أبي بلتعة ١٩٤١/٤ ، رقم الحديث (٢٤٩٤) .

(١) بفتح العين وكسر الشين وتشديد الباء . قال الأزهري : العشي عند العرب ما بين زوال الشمس وغروبها . (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥) .

(٢) مذكر ولكنه أنه على إرادة الخشبة (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥) .

(٣) السرعان ، بفتح السين والراء هذا هو الصواب الذي قاله الجمهور من أهل الحديث واللغة وهكذا ضبطه المتقنون والمعنى ، المسرعون إلى الخروج (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥ ، بتصرف) .

(٤) وفي رواية رجل من بني سليم ، وفي رواية رجل يقال له الخرباق وكان في يده طول ، وفي رواية رجل بسيط اليدين ، وهذا كله رجل واحد اسمه الخرباق بن عمرو بكسر الخاء والباء الموحدة وآخره قاف ، ولقبه ذو اليمين لطول كان في يديه وهو معنى بسيط اليدين (صحيح مسلم بشرح النووي ٦٨/٥ ، ٦٩) .

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب السهو ، باب (إذا سلم في ركعتين أو في ثلاث فسجد سجدتين مثل سجود الصلاة أو أطول ٣٦٦/١ مختصرا ، وفيه أن الرسول قال لأصحابه " أحق ما يقول ؟ " كما أخرجه في نفس الكتاب ، باب " من لم يتشهد في سجدتي السهو " نفس الجزء والصفحة " مختصرا " وذكر فيه " أصدق ذو اليمين " كما أخرجه في نفس الكتاب ، باب " من يكبر في سجدتي السهو " ٣٦٦، ٣٦٧/١ " بلفظ قريب " وفيه أن النبي ﷺ ، قال ، " لم أنس ولم تقصر " كما أخرجه مسلم في صحيحه كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب في السهو في الصلاة والسجود له ، ٤٠٣/١ بلفظه ، رقم الحديث (٥٧٣) كما أخرجه في نفس الكتاب والباب والجزء ص ٤٠٤ بلفظ أصدق ذو اليمين ؟ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ٧١/٥ بتصرف .

تلقاها ، ولكن يجب التنبيه على أمر هام وهو أن الإنسان ليس معصوماً من الخطأ والوقوع في الزلل ، فكل ابن آدم خطاء وخيرهم التوابون العائدون إلى الله ، فها هم خير أمة أخرجت للناس ، خير القرون وأحسنهم على الإطلاق أصحاب رسول الله -ﷺ- الذين أقاموا دعائم الدين ، ونشروا الإسلام ، ودافعوا عن رسول الله ، وأوذوا في سبيله ، قد نفشت بينهم مقولة خبيثة ، وفرية عظيمة ، ألا وهي قذف أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- الطيبة الطاهرة العفيفة بنت أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- ورميها بأحد الصحابة ، وكان الذي تولى إشاعة هذه الفرية رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول ، وتلقاها عنه بدون تبين صحابة ، وكان لهم فضل كبير ، ولهم سوابق خير في الدفاع عن رسول الله -ﷺ- وعن الإسلام كمسطح بن أثاثة^(١) ، الذي شهد بدرا مع رسول الله -ﷺ-^(٢) وحسان بن ثابت^(٣) الذي كان ينافح ويدافع عن الرسول -ﷺ- بشعره !! وحمنة بنت جحش^(٤) أخت زينب بنت جحش رضي الله عنها !! فهؤلاء قد أذاعوا الخبر المنقول بدون تبين ، ولو أنهم تبينوا من صحته لما وقع لهم اللوم والعتاب من الله ، وما قذفوا امرأة من خيرة نساء المؤمنين ، إلا أن هؤلاء قد اعترفوا بخطئهم وندموا وتابوا فتاب الله عليهم ، وفيهم نزل قوله تعالى:

" إن الذين جاؤوا بالباطك عصابة منك لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم { } لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين { } لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون { } ولولا فضل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم { } إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم { } ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم { } يعظمكم الله أن تعودوا

(١) مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب بن عبد مناف بن قصي كان اسمه عوف وأما مسطح فهو لقبه ، كان أبو بكر يموّنه لقربته منه ، فلما خاض مع أهل الإفك في أمر عائشة حلف أبو بكر ألا ينفعه فنزلت "ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى" سورة النور ، من الآية ٢٢ ، فعاد أبو بكر إلى الإنفاق عليه ، مات مسطح سنة أربع وثلاثين في خلافة عثمان ويقال : عاش إلى خلافة علي وشهد معه صفين ومات في تلك السنة سنة سبع وثلاثين . الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ، ٩٣/٦ ، وانظر المعارف لابن قتيبة ، ص ٣٢٨ ، دار المعارف القاهرة ، تحقيق د. ثروت عكاشة .

(٢) انظر المعارف ، لابن قتيبة ، ص ٣٢٨ .

(٣) حسان بن ثابت بن المنذر بن حرام بن عمرو شاعر رسول الله -ﷺ- يكنى أبا الوليد روي عن النبي -ﷺ- الأحاديث وروي عنه سعيد بن المسيب وأبو سلمة بن عبد الرحمن وآخرون ، كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي -ﷺ- أيام النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام مات حسان سنة أربعين وقليل خمسين وقليل أربع وخمسين وهو ابن عشرين ومائة سنة ، الإصابة ، ٦٢/٢ وما بعدها ، وانظر ترجمته في تاريخ دمشق ٣٧٨/١٢ وما بعدها ، والوافي بالوفيات للصفدي ، ٢٧٠/١١ وما بعدها .

(٤) حمنة بنت جحش الأسدية أخت أم المؤمنين زينب ، كانت زوج مصعب بن عمير فقتل عنها يوم أحد فزوجها طلحة بن عبيد الله ، وكانت من المبايعات شهدت أحدا وكانت تسقي العطشي وتحمل الجرحي وتداويهم (الإصابة ٥٨٦/٧) قال ابن سعد : أطعمها رسول الله في خيبر ثلاثين وسقا . (الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٤١/٨) .

لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين {} ويبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم {} إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون {} ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم^(١)

هذا ! وقد يكون للخبر الشائع أصل صحيح ، ولكن ناقله يتوسع فيه ويزيد فيه ما ليس منه ، ولو رده إلي أصله لتبين الصحيح منه من السقيم ، ومن ذلك قصة اعتزال النبي -ﷺ- أزواجه شهرا ، فتحدث الناس في ذلك ، وزادوا فيه ما ليس منه ، وهو أن النبي -ﷺ- طلق أزواجه ، إلا أن عمر بن الخطاب تبين الأمر وعرف صحته من النبي -ﷺ- فلقد روي عمر بن الخطاب قال: لما اعتزل نبي الله -ﷺ- نساءه ، قال : دخلت المسجد فإذا الناس يكتون^(٢) بالحصى ويقولون : طلق رسول الله -ﷺ- نساءه ، وذلك قبل أن يؤمرن بالحجاب ، فقال عمر : فقلت لأعلمن ذلك اليوم ، قال : فدخلت علي عائشة بنت أبي بكر ، فقلت يا بنت أبي بكر ، أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله -ﷺ-؟ فقلت : مالي ومالك يا بن الخطاب؟ عليك بعينتك^(٣) ، قال : فدخلت علي حفصة بنت عمر ، فقلت لها: يا حفصة : أقد بلغ من شأنك أن تؤذي رسول الله -ﷺ-؟ والله لقد علمت أن رسول الله -ﷺ- لا يحبك ، ولولا أنا لطلقك رسول الله -ﷺ- فبكت أشد البكاء ، فقلت لها : أين رسول الله -ﷺ-؟ قالت : هو في خزانته^(٤) في المشربة فدخلت فإذا أنا برباح غلام رسول الله -ﷺ- قاعدا علي أسكفة^(٥) مدل رجليه علي نقيز^(٦) من خشب وهو جذع يرقى عليه رسول الله -ﷺ- وينحدر ، فناديت يا رباح! استأذن لي عندك علي رسول الله -ﷺ- فنظر رباح إلي الغرفة ، ثم نظر إلي فلم يقل شيئا ، ثم رفعت صوتي ، فقلت : يا رباح استأذن لي عندك علي رسول الله -ﷺ- فإني أظن أن رسول الله -ﷺ- ظن أنني جئت من أجل حفصة ، والله لئن أمرني رسول الله بضرع عنقها لأضرب عنقها ورفعت صوتي فأومأ إلي أن أرقه ، فدخلت علي رسول الله -ﷺ- وهو مضطجع علي حصير ، فجلست فأدني عليه إزاره وليس عليه غيره ، وإذا الحصير قد أثر في جنبه ، فنظرت ببصري في خزانة رسول الله -ﷺ- فإذا

(١) سورة النور ، الآيات من ١١ : ٢٠ .

(٢) بناء مثناه بعد الكاف أي يضربون الأرض كفعل المهموم المفكر ، صحيح مسلم بشرح النووي ، ٨٢/١٠ ، المطبعة المصرية ومكتباتها .

(٣) المراد عليك بوعظ بنتك حفصة ، قال أهل اللغة : العيبة في كلام العرب وعاء يجعل الإنسان فيه أفضل ثيابه ، ونقيز متاعه فشبهت ابنته بها . (صحيح مسلم علي شرح النووي ، ٨٢/١٠) .

(٤) خزنت الشيء (خزنا) من باب قتل ، جعلته في المخزن وجمعه مخازن مثل مجلس ومجالس والخزانة بالكسر مثل المخزن والجمع الخزائن . (المصباح المنير ، ١٦٨/١) كتاب الخاء .

(٥) وهي بضم الهمزة والكاف وتشديد الفاء وهي عتبة الباب السفلى (صحيح مسلم بشرح النووي ، ٨٢/١٠) .

(٦) بنون مفتوحة ثم قاف مكسورة هذا هو الصحيح الموجود في جميع النسخ وذكر القاضي أنه بالفاء بدل النون وهو فقير بمعنى مفقور مأخوذ من فقار الظهر وهو جذع فيه درج . (صحيح مسلم بشرح النووي ، ٨٣/١٠) .

أنا بقبضة من شعير نحو الصاع ومثلها قرظاً^(١) في ناحية الغرفة وإذا أفيق^(٢) معلق ، قال: فابتدرت عيناى ، قال: "ما يبكيك يا بن الخطاب؟" قلت يا نبي الله ، ما لي لا أبكي؟ وهذا الحصر قد أثر في جنبك وهذه خزانة لا أرى ما فيها إلا ما أرى وذلك قيصر وكسري في الثمار والأنهار ، وأنت رسول الله وصفوته وهذه خزانة ، فقال "يا بن الخطاب ! ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا؟" قلت: بلى. قال: ودخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب. فقلت: يا رسول الله ! ما يشق عليك من شأن النساء؟ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا وأبو بكر والمؤمنون معك ، وقلمنا تكلمت ، وأحمد الله بكلام إلا رجوت أن يكون الله يصدق قولى الذي أقول. ونزلت هذه الآية: آية التخيير: "عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن"^(٣) "وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير"^(٤) وكانت عائشة بنت أبي بكر وحفصة تظاهران علي سائر نساء النبي -ﷺ- فقلت: يا رسول الله ! أطلقتهن؟ قال: "لا" قلت يا رسول الله ! إنى دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله -ﷺ- نساءه ، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن؟ قال: "نعم إن شئت" فلم أزل أحدثه حتى تحسر الغضب عن وجهه^(٥) وحتى كشر^(٦) فضحك ، وكان من أحسن الناس ثعرا ، ثم نزل نبي الله -ﷺ- ونزلت فنزلت أتشبه^(٧) بالجذع ونزل رسول الله -ﷺ- كأنما يمشي علي الأرض ، ما يمسه بيده ، فقلت: يا رسول الله ! إنما كنت في الفرقة تسعة وعشرين قال: إن الشهر يكون تسعا وعشرين فقامت علي باب المسجد فناديت بأعلي صوتي: لم يطلق رسول الله -ﷺ- نساءه ونزلت هذه الآية: "وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم"^(٨) فكنت أنا استنبطت ذلك الأمر وأنزل الله آية التخيير"^(٩).

(١) حب معروف يخرج من غلف كالعدس من شجر العضاء وبعضهم يقول (القرظ) ورق السلم يدبغ به الأديم (المصباح المنير ، ٤٩٩/٢) ، كتاب القاف.

(٢) هو بفتح الهمزة وكسر الفاء وهو الجلد الذي لم يتم دباغه وجمعه أفق بفتحها كأديم وأدم وقد أفق أديمه بفتحها بأفقه بكسر الفاء (صحيح مسلم ، بشرح النووي ، ٨٣/١٠-٨٤).

(٣) سورة التحريم ، من الآية: ٥.

(٤) سورة التحريم ، الآية: ٤.

(٥) أي زال وانكشف (صحيح مسلم ، بشرح النووي ، ٨٤/١٠).

(٦) هو بفتح الشين المعجمة المخففة أي أبدي أسنانه مبتسما ويقال أيضا في الغضب وقال ابن السكيت كشر وبسم وابتسم وافتتر كله بمعنى واحد فإن زاد قيل قهقه وزهدق وكركر (صحيح مسلم ، بشرح النووي ، ٨٤/١٠).

(٧) هو بالثاء المثناة في آخره أي استمسك (صحيح مسلم ، بشرح النووي ، ٨٤/١).

(٨) سورة النساء ، من الآية: ٨٣.

(٩) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الطلاق ، باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخبرهم وقوله تعالى "وإن تظاهرا عليه" (١١٠٥: ١١٠٨ ، رقم الحديث (١٤٧٩)).

من خلال ما سبق يتبين لنا أن علي الإنسان التأكد من صحة ما يصل إليه من الأخبار قبل إذاعتها ، حتي لا ينتج عن العجلة بإشاعتها ضرر عظيم ، وخطر كبير ، وعليه أن يطلب البينة من ناقله ، فالأناة صفة جميلة يحبها الله ورسوله ولقد تحلى بهذه الصفة الأنبياء والمرسلون ، ومن هؤلاء سيدنا سليمان حينما تغيب عنه الهدهد فيهدد بعذابه أو ذبحه ، إلا أنه لن يقيم عليه ذلك إلا بعد أن يأتيه بسلطان مبین ، قال تعالى في قصة سليمان عليه السلام: "وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين {} لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين"(١).

يقول صاحب الظلال-رحمه الله-: "ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي المخالف (لأعذبه عذابا شديدا أو لأذبحنه) ولكن سليمان ليس ملكا جبارا في الأرض إنما هو نبي ، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه قضاء نهائيا قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره ، ومن ثم تبرز سمة النبي العادل (أو ليأتيني بسلطان مبين) أي حجة قوية توضح عذره وتتفي المؤاخذه عنه"(٢).

من خلال ما سبق تبين لنا أن علي الإنسان التأكد من صحة الأخبار قبل إذاعتها ، حتي لا ينتج عن العجلة بإشاعتها ضرر عظيم ، وخطر كبير ، وحتى لا يعقب العجلة الندم ، فهو ثمرتها دائما.

رابعا التأمي في القول : ويعني : أن لا يتكلم الإنسان فيما لا يعنيه ، وأن يتدبر كلامه قبل نطقه حتي لا تفاجئه عاقبته ، قال أحد العلماء محذرا من غفلة اللسان: "خف يا أخي من لسانك أشد من خوفك من السبع الضاري القريب المتمكن من أخذك ، فإن قتل السبع من أهل الإيمان ثوابه الجنة ، وقتل اللسان عقوبته النار إلا أن يعفو الله ، وإياك يا أخي والغفلة عن اللسان فإنه سبع ضار ، وأول فريسته صاحبه فأغلق باب الكلام من نفسك بغلق وثيق ثم لا تفتحه إلا فيما لا بد منه ، فإذا فتحت فاحذر وخذ من الكلام حاجتك التي لا بد منها وأغلق الباب ، وإياك والغفلة عن ذلك والتمادي في الحديث وأن يستمد بك الكلام فتهلك نفسك ، وإياك يا أخي والغفلة عنه فإنه أعظم جوارحك عليك جنائية ، وأكثر ما تجد في صحيفة أعمالك يوم القيامة من الشر ما أملاه عليك لسانك ، وأكثر ما تجده في صحيفتك من الخير ما اكتسبه قلبك"(٣).

فلسان آفات لا تحصي ولا تعد إذا أطلق صاحبه له العنان ، فابستقامته تستقيم الجوارح ، وتعوج باعوجاجه ، فالواجب علي المسلم أن يتأني في كلامه بالنظر في عواقبه قبل تلفظه به ، وليعلم أن ما من

(١) سورة النمل ، الآية: ٢٠ ، ٢١

(٢) الظلال ، ٢٦٣٨/٥ ، دار الشروق.

(٣) آداب النفوس لأبي عبد الله حارث بن أسد المحاسبي، ص ٤٣ : ٤٥ ، دار الجيل بيروت ، لبنان ١٩٨٤م ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

لفظ ينطق به إلا ويكتب إما له أو عليه في صحيفة أعماله ، قال تعالى: " ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد"^(١) قال الإمام الشنقيطي: " أي ما ينطق بنطق ولا يتكلم بكلام إلا وعنده "رقيب" أي ملك مراقب لأعماله حافظ لها ، شاهد عليها ، لا يفوته منها شيء ، ومعني (عتيد) أي حاضر ليس بغائب يكتب عليه ما يقول من خير وشر"^(٢).

فيا حسرتنا ويا ويلتنا من كلمة ننطق بها لا نلقى لها بالا فتهوي بنا في نار جهنم ، قال النبي :-
 ﷺ "إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالا يرفع الله بها درجات وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالا يهوي بها في جهنم"^(٣). وفي رواية أخرى "إن العبد يتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب"^(٤).

قال الإمام النووي "ينبغي لمن أراد النطق بكلمة أو كلام أن يتدبره في نفسه قبل نطقه فإن ظهرت مصلحته تكلم وإلا أمسك"^(٥). وقال الإمام الشافعي : "ينبغي للمرء أن يتفكر فيما يريد أن يتكلم به ويتدبر عاقبته فإن ظهر له أنه خير محقق لا يترتب عليه مفسدة ولا يجر إلي منهى عنه أتى به وإلا سكت"^(٦). فاحذر يا أخي من لسانك فإنه شاهد عليك يوم القيامة قال تعالى: "ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً"^(٧).

فالمولي جل جلاله ينهي في هذه الآية الكريمة "عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم ، ويشمل ذلك قوله : رأيت ولم ير ، وسمعت ولم يسمع ، وعلمت ولم يعلم ، ويدخل فيه كل قول بلا علم"^(٨) قال الإمام الواحدي رحمه الله: "لا تقولن في شيء بما لا تعلم"^(٩).

وقال أبو جعفر النحاس في معني قوله "لا تقف" هو من قفوت الشيء أي اتبعت أثره ، والمعني لا تتبع لسانك ما لم تعلمه فتكلم بالحدس والظن"^(١٠) فالآية الكريمة تحذير للإنسان من كل قول يتلفظ به بلا

(١) سورة ق ، الآية : ١٨ .

(٢) أضواء البيان ، ٦٥٠/٧ ، بتصرف .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان وقول النبي -ﷺ- من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت وقوله تعالى "وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد" ٢٠٣٢/٤ ، رقم الحديث (٦٤٧٨) عن أبي هريرة .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، الكتاب نفسه والباب نفسه والراوي نفسه بلفظ قريب ، ٢٠٣٢/٤ ، رقم الحديث (٦٤٧٧) ، كما أخرجه مسلم في صحيحه واللفظ له ، ٢٢٩٠/٤ ، كتاب الزهد والرقائق ، باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار ، وفي نسخة ، باب حفظ اللسان ، عن أبي هريرة .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١١٧/١٨ .

(٦) فيض القدير ، ٣٣١/٢ .

(٧) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٨) أضواء البيان للشنقيطي ، ٥٧٦/٣ .

(٩) تفسير الواحدي ، ٦٣٤/٢ .

(١٠) معاني القرآن للنحاس ، ١٥٦/٤ .

علم ، كأن يقول رأيت فلانا أو سمعته يفعل كذا أو يقول كذا وهو لم يره ولم يسمعه ، وغير ذلك من الأقوال التي قد تشملها الآية الكريمة ، وأما قوله " إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً " ففيه وجهان ذكرهما الشنقيطي في تفسيره ، "الأول: إن معني الآية : إن الإنسان يسأل يوم القيامة عن أفعال جوارحه فيقال له لم سمعت ما لا يحل لك سماعه؟ ولم نظرت إلي ما لا يحل لك النظر إليه؟ ولم عزمت علي ما لم يحل لك العزم عليه؟ ويدل على هذا المعني آيات من كتاب الله تعالى كقوله: " ولتسألن عما كنتم تعملون " وقوله: " فوريك لنسألنهم أجمعين { عما كانوا يعملون " ونحو ذلك من الآيات.

الثاني: أن الجوارح هي التي تسأل عن أفعال صاحبها فتشهد عليه جوارحه بما فعل^(١). وهذا الوجه الثاني هو ما أميل إليه ؛ لأن ذلك أبلغ وأقوي في الحجة ، وأفحم للعبد إذا أنكر ، فالشاهد عليه هي جوارحه التي اقترفت ما يحاسب عليه. قال تعالى: "اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون"^(٢) وقال: "حتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون { وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون"^(٣) وقال تعالى: "يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون"^(٤) قال أبو السعود: "معني شهادة الجوارح أنه تعالى ينطقها بقدرته فتخبر كل جارية منها بما صدر عنها من أفاعيل صاحبها"^(٥) وقال السعدي: "ولقد عدل في العباد من جعل شهودهم من أنفسهم"^(٦) وقال قتادة: "ابن آدم ، والله إن عليك شهودا غير متهمة من بدنك فراقبهم ، واتق الله في سرك وعلانيتك فإنه لا يخفي عليه خافية ، الظلمة عنده ضوء ، والسر عنده علانية ، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن فليفعل"^(٧). فكل هذه الآيات تدل علي شهادة الجوارح علي صاحبها ، وكما قلنا أعظم هذه الجوارح هو اللسان فهو من يشهد علي صاحبه فيما تكلم هل في حق أم باطل ، فليحذر الإنسان منه.

- وإليك بعض الأحاديث الشريفة التي تحذر من غفلة اللسان وتدعو إلي التأني في القول:-

الحديث الأول: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال : قال رسول الله -ﷺ-: "من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه"^(٨).

(١) أضوء البيان ، ٣/ ٥٨٩-٥٩٠ .

(٢) سورة يس ، الآية : ٦٥ .

(٣) سورة فصلت ، الآية : ٢٠ ، ٢١ .

(٤) سورة النور ، الآية : ٢٤ .

(٥) إرشاد العقل السليم لـ أبي السعود ، ١٦٦/٦ .

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي ، ص ٥٦٥ .

(٧) تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ، ٣/ ٢٧٨ .

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ، ٤/ ٢٠٣٢ ، رقم الحديث (٦٤٧٥) .

فالشاهد في الحديث قوله -ﷺ- "قليل خيرا أو ليصمت" والمعني: "قليل خيرا يثاب عليه بعد التفكير فيما يريد التكلم به فإذا ظهر له أنه خير لا يترتب عليه مفسده قاله أو "ليصمت" أي يسكت عن الشر فيسلم" فكل من آمن بالله حق الإيمان خاف وعيده ، ورجا ثوابه ، ومن آمن باليوم الآخر استعد واجتهد في فعل ما يدفع به أهواله ، فيأتمر بالأوامر وينتهي عن النواهي ، ويتقرب لمولاه بما يقربه إليه ، ويعلم أن من أهم ما عليه ضبط جوارحه ، وأن أكثر المعاصي عددا وأيسرها فعلا معاصي اللسان ، فمن آمن بذلك حق إيمانه اتقى الله في لسانه^(١) وفي هذا الحديث: "استحباب ترك الكلام المباح خوفا من انجراره إلى المكروه أو الجناح"^(٢).

الحديث الثاني: روي عن معاذ بن جبل^(٣) أنه قال: "قلت يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال -ﷺ-: "تكلمك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار علي وجوههم أو علي مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم"^(٤) ومعني قوله حصائد ألسنتهم" أي محصوداتها ، شبه ما يتكلم به الإنسان بالزرع المحصود بالمنجل وهو من بلاغة النبوة فكما أن المنجل يقطع ولا يميز بين الرطب واليابس والجيد والرديء ، فكذلك لسان بعض الناس يتكلم بكل نوع من الكلام حسنا وقبيحا ، والمعني : لا يكب الناس في النار إلا حصائد ألسنتهم من الكفر ، والقذف ، والشتم ، والغيبة ، والنميمة ، والبهتان ونحوها"^(٥).

الحديث الثالث: قال -ﷺ-: "من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة"^(٦). قال ابن حجر: "قوله "ما بين لحييه" بفتح اللام وسكون المهملة والتنثنية هما العظمان في جانبي الفم ، والمراد بما بينهما اللسان وما يتأتي به النطق ... وقال : النطق باللسان أصل في حصول كل مطلوب فإذا لم ينطق به إلا في خير سلم ، وقال ابن بطال : دل الحديث علي أن أعظم البلاء علي المرء في الدنيا لسانه وفرجه ، فمن وقى شرهما وقى أعظم الشر"^(٧).

(١) شرح الزرقاني ، ٣٨٣/٤ ، بتصرف.

(٢) عون المعبود ، ٤٣/١٤ .

(٣) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس ، يكنى أبا عبد الرحمن ، أسلم وهو ابن ثمانى عشرة سنة ، وشهد العقبة مع السبعين وبدرًا والمشاهد كلها ، بعثه النبي - ﷺ - إلى اليمن بعد غزوة تبوك ، مات في طاعون عمواس بناحية الأردن من الشام سنة ثمان عشرة لصفة الصفوة المجلد الأول ٢٥٣/١ وما بعدها.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في حرمة الصلاة ١١/٥ ، رقم الحديث (٢٦١٦) ، وهو حديث طويل اقتصر فيه علي محل الشاهد ، وقال أبو عيس : هذا حديث حسن صحيح ، كما ذكره الحاكم في المستدرک ، ٤٤٧/٢ ، كتاب التفسير "تفسير سورة السجدة" ، وقال الحاكم : صحيح علي شرط الشيخين ولم يخرجاه .

(٥) تحفة الأحوذى ، ٣٦٥/٧ .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الرقاق ، باب حفظ اللسان ، ٢٠٣٢/٤ ، رقم الحديث (٦٤٧٤) عن سهل بن سعد .

(٧) فتح الباري ، ٣١٦/١١ .

الحديث الرابع: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: "سئل النبي -صلى الله عليه وسلم- عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، قال: التقوي وحسن الخلق" وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: "الأجوفان الفم والفرج"^(١).

الحديث الخامس: عن أنس قال: "قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من سره أن يسلم فيلزم الصمت"^(٢). قال المناوي: من سره أن يسلم في الدنيا من أذى الخلق، وفي الآخرة من عقاب الحق، فيلزم الصمت عما لا يعنيه ولا منفعة فيه، ليسلم من الزلل، ويقل حسابه؛ لأن خطر اللسان عظيم، وآفاته كثيرة، ولسلامة اللسان حلاوة في القلب، وعليها بواعث من الطبع والشيطان، وليس يسلم من ذلك كله إلا بتقييده بلجام الشرع"^(٣).

وغير ذلك من الأحاديث التي كلها توضح معني واحدا وهو أن علي الإنسان أن يملك لسانه، ولا يتكلم بكلمة إلا بعد أن يتبينها ويتدبرها، وينظر في عواقبها، فإن رأي فيها خيرا نطق بها وإلا فلا، ولقد ذكر العلماء أقوالا تدعو إلي التأني في القول، وتحذر من غفلة اللسان، ومن هذه الأقوال: "قال أبو حاتم أنشدني المنتصر بن بلال:

ولا تسبقن الناس بالرأي وائتد فإنك إن تعجل إلي القول تذل

ولكن تصفح رأي من كان حاضرا وقل بعدهم رسلا وبالحق فاعمل"^(٤)

وقال بعض الحكماء: من أخلاق الحمق العجلة، والخفة، والجفاء، والغرور، والفجور، والسفه، والجهل، والتواني، والخيانة، والظلم، والضياع، والتفريط، والغفلة، والسرور، والخيلاء، والفجر، والمكر، إن استغني بطر، وإن افتقر قنط، وإن فرح أشر، وإن قال فحش، وإن سئل بخل، وإن سأل ألح، وإن قال لم يحسن، وإن قيل له لم يفقه، وإن ضحك نهق، وإن بكى خار"^(٥).

وقال أبو حاتم -رضي الله عنه-: "إن الرافق لا يكاد يسبق، كما أن العجل لا يكاد يلحق، وكما أن من سكت لا يكاد يندم، كذلك من نطق لا يكاد يسلم، والعجل يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويندم بعد ما يحمد، ويعزم قبل أن يفكر، ويمضي قبل أن يعزم، والعجل تصحبه الندامة

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه علي الصحيحين، كتاب الرقاق، ٣٦٠/٤، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأحمد في مسنده ٤٤٢/٢.

(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، باب ما جاء في الصمت وحفظ اللسان، ٢٩٧/١٠، وقال فيه عثمان بن عبد الرحمن الوقاصي وهو متروك، وينظر المعجم الأوسط، ٢٦٤/٢.

(٣) فيض القدير، ١٥١/٦.

(٤) روضة العقلاء لمحمد بن حبان البستي أبي حاتم، ص ١٩٢، دار الكتب العلمية بيروت، ١٣٩٧-١٩٧٧، المحقق /محمد محي الدين عبد الحميد.

(٥) أخبار الحمقي والمغفلين، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي ص ٣٥، المكتب التجاري، بيروت.

وتعزله السلامة ، وكانت العرب تكني العجلة أم الندامات^(١). وقال : " الواجب علي العاقل أن لا يغالب الناس علي كلامهم ولا يعترض عليهم فيه ، لأن الكلام وإن كان في وقته خطوة جليلة ، فإن الصمت في وقته مرتبة عالية ، ومن جهل بالصمت عي بالمنطق ، والإنسان إما هو صورة ممثلة أو صالة مهمة لولا اللسان ، والله -ﷻ- رفع جراحة اللسان علي سائر الجوارح ، فليس فيها شيء أعظم أجرا منه إذا أطاع ، ولا أعظم ذنبا إذا جني وانشد:

لئن كان يجني اللوم ما أنت قائل ولم يك منه النفع فالصمت أيسر

فلا تبد قولاً من لسانك لم يرض مواقعه من قبل ذاك التفكير^(٢).

ومن الأقوال أيضا: "لسان العاقل يكون وراء قلبه ، فإذا أراد القول رجع إلي القلب ، فإن كان له قال وإلا فلا ، والجاهل قلبه في طرف لسانه ما أتى علي لسانه تكلم به ، وما عقل دينه من لم يحفظ لسانه ، واللسان إذا صلح تبين ذلك علي الأعضاء ، وإذا فسد فكذلك"^(٣) ومنها: "العاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يسأل ، ولا يقول إلا لمن يقبل ، ولا يجيب إذا شوتم ، ولا يجازي إذا سمع لأن الابتداء بالصمت وإن كان حسنا ، فإن السكوت عند القبيح أحسن منه"^(٤).

"وعن ابن المبارك أنه سمع رجلا يتكلم بما لا يعنيه فقال : احفظ لسانك فإن اللسان سريع إلي المرء في قتله ، وإن اللسان بريد الفؤاد يدل الرجال علي عقله"^(٥). قال أبو العتاهية^(٦):

الصمت أجمل بالفتي من منطلق في غير حينه

كل امرئ في نفسه أعلي وأشرف من قرينه^(٧).

وغير ذلك من الأقوال التي هي دعوة أكيدة للتأني في الكلام ، وتدبره وترك الخوض فيما لا فائدة منه ولا طائل تحته.

(١) روضة العقلاء ، ص ٢١٦.

(٢) روضة العقلاء ، ص ٤٢.

(٣) روضة العقلاء ، ص ٤٧.

(٤) روضة العقلاء ، ص ٤٧.

(٥) شعب الأيمان ، باب في حفظ اللسان ، فصل في فضل الكون عما لا يعنيه ، ٢٧٦/٤ رقم الحديث (٥٠٧٦).

(٦) إسماعيل بن القاسم بن سويد العنزي من قبيلة عنزة ، شاعر مكثر سريع الخاطر ، في شعره إبداع ، كان ينظم المائة والمائة والخمسين بيتا في اليوم ، توفي سنة ٢١١ هـ ، ٨٢٦ م. (الأعلام ٣٢١/١ التاسعة ١٩٩٠ م).

(٧) ديوان أبي العتاهية ، ص ٤٤٩ ، بعنوان لا خير في حشو الكلام ، دار صادر بيروت ، تحقيق وشرح/ كرم البستاني.

وبعد سرد بعض الأمور التي يجب فيها التأني والتبين يجدر بنا أن نذكر بعض الأقوال الواردة في ذم العجلة ، منها : قال ذو النون^(١) : "أربع خلال لها ثمرة : العجلة ، والعجب^(٢) ، واللجاجة^(٣) ، والشره^(٤) فثمرة العجلة الندامة ، وثمره العجب البغضة ، وثمره اللجاجة الحيرة^(٥) ، وثمره الشره الفاقة^(٦) (٧) .

كما بين أبو جعفر البغدادي أنها من الخصال التي لا تحسن أن يتصف بها الناس ، فقال : "ست خصال لا تحسن بستة رجال ، لا يحسن الطمع في العلماء ، ولا العجلة في الأمراء ، ولا الشح في الأغنياء ، ولا الكبر في الفقراء ، ولا السفه في المشايخ ولا اللؤم في ذوي الأحساب"^(٨) كما أن العجلة من أخلاق الجاهل ، قال وهب بن منبه^(٩) : "من أخلاق الجاهل عشرة أخلاق سيئة ، الطيش ، والسفه ، والضجر ، والعجلة ، والغضب ، والملامة ، والكذب ، وبغض الخير ، وحب الشر ، ... ثم قال : ويتشعب من العجلة الخسران ، والندامة ، وقلة الفهم ، وسوء النظر ، وفراق الصاحب ، وطلاق المرأة ، وتضييع المال ، وشماتة العدو ، واكتساب الشر ، واكتساب الملامة والمذمة"^(١٠) .

وبهذا أنشد محمد بن عيسى بن طلحة بن عبدالله يدعو بعدم الاستعجال بالبطش والظلم علي أحد فقال :

(١) ذو النون المصري بن إبراهيم أبو الفيض أصله من النوبة ، يقال اسمه فيض ويقال ثوبان ، وذو النون لقب ، أسند أحاديث كثيرة عن مالك والليث بن سعد وغيرهم ، توفي سنة ست وأربعين ومائتين ودفن في مقابر أهل المعافر لصفة الصفة ، المجلد الثاني ٢٦١/٤ وما بعدها .

(٢) الكبر والزهو ، المعجم الوسيط ، ٥٨٤/٢ ، باب العين ، الطبعة الثانية .

(٣) العناد في الخصومة والتمادي فيها (المرام في المعاني والكلام) القاموس الكامل د/مؤنس رشاد الدين ص ٧٢٥ دار الراتب الجامعة سوفتير ط الأولى ، بيروت ٢٠٠٠ م ، ١٤٢٠ هـ .

(٤) شره علي الطعام وغيره (شرها) من باب تعب : حرص أشد الحرص فهو (شره) (المصباح المنير ، ٣١٢/١ كتاب الشين) .

(٥) التردد (المرام في المعاني والكلام) القاموس الكامل د/مؤنس رشاد الدين ص ٣٣٧ .

(٦) الحاجة ، والفقر ، القاموس الكامل د/مؤنس رشاد الدين ، ص ٦٢٤ .

(٧) شعب الإيمان للبيهقي باب في حسن الخلق ، فصل في التواضع وترك الزهو والصلف والخيلاء والفخر والمدح ، ٢٩٤/٦ ، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٠ ، الأولى ، تحقيق/ محمد السعيد بسيوني زغلول .

(٨) فيض القدير للمناوي ، ٣٦٤/٢ .

(٩) وهب بن منبه الصنعاني ، أبو عبد الله ، عالم بأساطير الأولين ، يعد من التابعين ، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم قصرى إلى اليمن ، توفي سنة ١١٤ هـ ، ٧٣٢ م . (الأعلام للزركلي ١٢٥/٨ ، الثامنة ١٩٨٩ م) .

(١٠) تهذيب الكمال ليوسف بن الزكي عبد الرحمن أبي الحجاج المزني المولود ٦٥٤ هـ - ٧٤٢ ، ١٥٨/٣١ - ١٥٩ بتصرف ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٠ ، ١٩٨٠ الأولى ، تحقيق/ بشار عواد معروف .

فلا تعجل علي أحد بظلم	فإن الظلم مرتعه ^(١) وخيم ^(٢)
ولا تفحش وإن بليت ظلما	علي أحد فإن الفحش لوم
ولا تقطع أcha لك عند ذنب	فإن الذنب يغفره الكريم
ولكن دار عورته برفق	كما قد ترقع الخلق القديم
ولا تجزع لريب الدهر واصبر	فإن الصبر في العقبي سليم
فما جزع سيغني عنك شيئا	ولا ما فات ترجعه الهموم ^(٣)

وقال أبو حاتم البستي^(٤): "العجلة تكون من الحدة ، وصاحب العجلة إن أصاب فرصته لم يكن محمودا ، وإن أخطأها كان مذموما ، والعجل لا يسير إلا مناكبا للقصد ، منحرفا عن الجادة ، يلتبس ما هو أنكد وأوعر وأخفي مسارا ، يحكم حكم الورهاء^(٥) ويناسب أخلاق النساء"^(٦). وقال أيضا : "العجلة موكل بها الندم وما عجل أحد إلا اكتسب ندامة واستفاد مذمة ، لأن الزلل مع العجل والإقدام علي العمل بعد التأني فيه أحزم من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه ، ولا يكون العجول محمودا أبدا^(٧) والعاقل يعلم أن العجز في الأمور يقوم في النقص مقام الإفراط في السعي فيتجنبها معا ويجعل لنفسه مسلكا

(١) الرتع : الأكل والشرب رغدا في الريف ، رتع يرتع رتوعا ورتاعا ، والاسم الرتعة يقال خرجنا نرتع ونلعب أي نتنعم ونلهو وقوم مرتعون : راتعون إذا كانوا مخاصيب ، والموضع مرتع وكل مخصب مرتع ، لسان العرب ١٥٧٧/٣ باب الراء.

(٢) وخم : يقال هذا الأمر وخيم العقابية أي ثقيل ردي ، لسان العرب ، ٤٧٩١/٦ ، باب الواو .

(٣) شعب الإيمان للبيهقي ، ٥٨/٦ ، فصل في ذكر ما ورد في التشديد في الظلم ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١٤١٠ ، الطبعة الأولى ، تحقيق/ محمد السعيد بسيوني زغلول .

(٤) محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ التميمي أبو حاتم البستي ، ولد في بست ، ورحل إلى خراسان والشام ومصر والعراق ، تولى قضاء سمرقند مدة ثم عاد إلى نيسابور ومنها إلى بلده ، حيث توفي في عشر الثمانين من عمره ، من كتبه المسند الصحيح في الحديث وروضة العقلاء في الأدب ، توفي سنة ٣٥٤هـ ، ٩٦٥م (الأعلام ٧٨/٦ العاشرة).

(٥) الورة ، الحمق في كل عمل ويقال : الحزق في العمل . لسان العرب ٤٨٢٠/٦ مادة وره ، باب الواو .

(٦) روضة العقلاء ، ص ٢١٧ .

(٧) إلا في أمور الدين كما أوضحنا سالفًا .

بينهما^(١)، وكثير من الأقوال واردة في ذم العجلة يذخر بها كتاب روضة العقلاء فمن أحب الاستزادة فليرجع إليه.

أمر هام يجب التنبيه إليه وهو: أن هناك فرقاً بين التأنى والتواني ، فالتواني هو الكسل وتضييع الحزم وعدم القياس علي مصالح النفس وترك التسبب ، والاحتراف والإحالة علي المقادير وهذا من أقبح الأفعال ، أما التأنى: فهو خلاف التواني وهو الرفق ورفض العجلة والنظر في العواقب ، وقد قيل: من نظر في عواقب الأمور سلم من آفات الدهور ، وقال بعض الحكماء : إذا شككت فاجزم ، وإذا استوضحت فاعزم ، وقال يد الرفق تجني ثمرة السلامة ، ويد العجلة تغرس شجرة الندامة وأنشدوا في ذلك:

قد يدرك المتأنى بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

وقال التاني حصن السلامة ، والعجلة مفتاح الندامة ، وقالوا إذا لم يدرك الظفر بالرفق والتأني ، فبماذا يدرك؟!^(٢) قال ابن القيم رحمه الله : "إنما كانت العجلة من الشيطان لأنها خفة وطيش وحدة في العبد تمنعه من التثبت والوقار والحلم ، وتوجب وضع الأشياء في غير موضعها ، وتجلب عليه أنواعا من الشرور ، وتمنعه أنواعا ، وهي قرين الندم ، فقل من استعجل إلا ندم ، كما أن الكسل قرين الفوت والإضاعة"^(٣).

(١) روضة العقلاء ، ص ٢١٧.

(٢) المستطرف في كل فن مستظرف ، لشهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبهسي ، ١٢٨/٢ ، ١٢٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م ، الطبعة الثانية ، تحقيق مفيد محمد قميحة.

(٣) الروح ، لابن القيم ، ص ٢٥٨.

البحث الثاني

دعوة القرآن والسنة إلى الصبر:

الصبر من الأخلاق الفضيلة ، والخصال الشريفة التي يتحلى بها الإنسان ، وبها شرفه خالقه -ﷻ-
فما من فضيلة اتصف بها الإنسان إلا والصبر مبدؤها .

تعريف الصبر لغة واصطلاحاً :

-الصبر لغة : قال ابن فارس-رحمة الله-: "الصاد و الباء والراء أصول ثلاثة ، الأول :الحبس ،
والثاني : أعالي الشيء ، والثالث : جنس الحجارة"^(١) وقد اشتق الصبر المراد هنا من المعنى الأول وهو
الحبس ، قال صاحب مقاييس اللغة : " فالأول الصبر وهو الحبس يقال صبرت نفسي عن ذلك الأمر أى
حبستها ، والمصبورة المحبوسة على الموت ، ونهى رسول الله -ﷺ- عن قتل شيء من الدواب
صبراً"^(٢)، وقال صاحب المصباح المنير: "صبرت صبراً من باب "ضرب " حبست النفس عن الجوع"^(٣).
وقال ابن منظور : "الصبر نقيض الجزع ، صبر يصبر صبراً فهو صابر وصبار وصبير وصبور ،
والأنثى صبور أيضاً بغيرها وجمعه صبر"^(٤) وقال الراغب : "الصبر : الإمساك فى ضيق ، يقال صبرت
الدابة بمعنى حبستها بلا علف"^(٥).

من خلال هذه المعان اللغوية يتبين أن الصبر معناه فى اللغة: الحبس والإمساك .

وللصبر مسميات عدة ، قال الراغب : "الصبر لفظ عام وربما خولف بين أسمائه بحسب اختلاف
مواقعه فإن كان حبس النفس لمصيبة سمي "صبراً" ويضاده "الجزع" ، وإن كان فى محاربة سمي
"شجاعة" ويضاده "الجبن" ، وإن كان فى نائبة مضجرة سمي "رحب الصدر" ويضاده "الضجر" ، وإن كان
فى إمساك الكلام سمي "كتماناً" ويضاده "المذل" وقد سمي الله تعالى كل ذلك صبراً ونبه عليه
بقوله: "والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس" و"الصابرين على ما أصابهم"^(٦).

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٣٢٩ ، باب الصاد والباء وما يتلثهما ، الطبعة الأولى ، ط دار الجبل بيروت ١٤١١ ، ١٩٩١ م . تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون .

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٣/٣٢٩ ، باب الصاد والباء وما يتلثهما

(٣) المصباح المنير ص ٣٣١ ، كتاب الصاد .

(٤) لسان العرب لابن منظور ٤/٢٣٩٢ ، باب الصاد ، وينظر الصحاح فى اللغة والعلوم ص ٥٨٧ ، إعداد وتصنيف/ نديم

مرعشلى ، أسامة مرعشلى . ط . دار الحضارة .

(٥) المفردات للأصفهاني " ص ٢٧٣ ، كتاب الصاد .

(٦) المفردات للأصفهاني ، ص ٢٧٣ ، كتاب الصاد .

-الصبر اصطلاحاً : عرف العلماء الصبر في الاصطلاح بعدة تعريفات منها : "حبس النفس على ما يقتضيه العقل والشرع أو عما يقتضيان حبسها عنه" ^(١) وقيل : "قوة مقاومة الأهوال والآلام الحسية والعقلية" ^(٢) وقيل : "ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله ؛ لأن الله تعالى أثنى على أيوب -عليه السلام- بقوله "إنا وجدناه صابراً" ^(٣) مع دعائه بدفع الضر عنه بقوله : "وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين" ^(٤) فعلمنا أن العبد إذا دعا الله تعالى في كشف الضر عنه لا يقدر في صبره" ^(٥) وقيل : "هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها . وقيل : تجرع المرارة من غير تعبس ، وقيل : هو التبعد عن المخالفات ، والسكون عن تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحة المعيشة ، وقيل : هو الوقوف مع البلاء بحسن الآداب ، وقيل : هو الغنى في البلوى بلا إظهار شكوى ، وقيل : هو الثبات مع الله وتلقى بلائه بالرحب والدعة ، وقيل : هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة" ^(٦) . وغير ذلك من الأقوال التي توضح لنا معنى هذا الخلق الرفيع وفضيلته ، وقد ذكر الله "الصبر" في كتابه في أكثر من تسعين موضعاً ، كما قرنه بالصلاة في قوله تعالى : "واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين" ^(٧) وجعل الإمامة في الدين موروثاً عن الصبر واليقين بقوله : "وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون" ^(٨) فإن الدين كله علم بالحق وعمل به ، والعمل به لا بد فيه من الصبر ، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر" ^(٩)

والصبر مطلوب في جميع الأمور بل "واجب" . من هذه الأمور على سبيل المثال لا الحصر :

الصبر على مشاق الدعوة إلى الله -ﷻ- :

الصبر صفة المؤمنين الصالحين ، وطريق للدعاة العاملين ، ومنهج للعلماء الصالحين ، به يبلغ المرء مراده ، وينصر دعوته ، وينشر رسالته ، فإذا ابتغى أي فرد من الأفراد نجاحه في أي أمر من الأمور ؛ فلا بد أن يتزود ب زاد الصبر ، ويجعله له عنواناً وصاحباً ، والله در القائل إذ يقول :

(٢) المفردات لأصفهاني ، ص ٢٧٣ ، كتاب الصاد .

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ، لمحمد عبد الرؤوف المناوي ص ٤٤٧ . باب الصاد ، فصل الباء .

(٤) سورة ص ، الآية : ٤٤ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية : ٨٣ .

(٦) التعريفات للجرجاني ص (١٧٢) باب الصاد .

(٧) ينظر لهذه التعريفات في عدة الصابرين وخيرة الشاكرين للإمام شمس الدين بن القيم الجوزية ص ١٤ ، ط . دار المنار ، تحقيق / محمد عبد الملك الزغبى .

(٨) سورة البقرة ، الآية : ٤٥

(٩) سورة السجدة ، الآية : ٢٤

(٩) مجموع فتاوى ، لـ شيخ الإسلام محمد بن تيمية ، ١٠ / ٣٩ ، جمع / عبد الرحمن بن محمد بن قاسم ، الأولى ١٣٩٨ م ، مؤسسة الرسالة .

"لا تحسبن المجد تمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر"^(١)

لذلك جعل الله -ﷻ- الصبر من صفات أهل الفلاح الذين استثناهم من الخسران ، فقال: "والعصر { } إن الإنسان لفي خسر { } إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر"^(٢). فالواجب على الداع أن يوطن نفسه على تحمل أعباء الدعوة بما يصيبه من الأذى الذي يعترضه وهو في طريقه إلى الدعوة حسبة لوجه الله ، فطريق الدعوة ليست سهلة ممهدة ، بل هي أشواك ومنحنيات وابتلاءات واختبارات ؛ ولذا فقد أوصى لقمان ابنه بالصبر حين رباه على تبليغ الدعوة والقيام بها فقال له: "يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور"^(٣) فالمتأمل في هذه الوصية وجد أنها جمعت القيام بالفرائض ، وعلى رأسها الصلاة ، لتحسن الصلة بينه وبين مولاه ، ولتستقيم على الطريق قدماء . ولم تقتصر الوصية على ذلك ، بل جعلت هذه الصلة دافعا له إلى حب دعوته ، والقيام بنشرها ، أمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، ثم بينت له طبيعة الطريق ، وأنها شاقة ستعرضه للآلام والأذى من أهل الشر ، لينالوا منه ، فيقفون عثرة أمامه ، يقذفونه بالتهمة ، ويشوشون على دعوته ، ويسبئون إلى سيرته ، ويسخرون منه ومن أتباعه ، ويحذرون الناس من الإقتداء به ، والسير على منهجه ، ومن ثم فقد أوصته بالصبر الذي هو من عزم الأمور ، قال الرازي رحمه الله : " لما منعه من الشرك وخوفه بعلم الله وقدرته أمره بما يلزمه من التوحيد وهو الصلاة ، وهي العبادة لوجه الله مخلصا ... ثم قال تعالى "وأمر بالمعروف وانه عن المنكر" أى إذا كملت أنت في نفسك بعبادة الله فأكمل غيرك فإن شغل الأنبياء وورثتهم من العلماء هو أن يكملوا فى أنفسهم ويكملوا غيرهم ، ثم قال تعالى: " واصبر على ما أصابك" يعنى أن من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يؤذى فأمره بالصبر عليه"^(٤) وقال ابن عطية: "وصى ابنه بعظم الطاعات وهى الصلاة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهذا إنما يريد به بعد أن يمتثل هو فى نفسه ، ويزجر عن المنكر ، وقوله " اصبر على ما أصابك " يقتضى حضا على تغيير المنكر وإن نال ضررا ، فهو اشعارا بأن المغير يؤذى أحيانا ، وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة فى ذات الله ، وأما على اللزوم فلا"^(٥).

قال الشيخ تقي الدين : " الصبر على أذى الخلق عند الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إن لم يستعمل لزم أحد أمرين: إما تعطيل الأمر والنهى ، وإما حصول فتنة ومفسدة أعظم من مفسدة ترك الأمر والنهى أو مثلهما أو قريب منها ، وكلاهما معصية وفساد . قال تعالى : "وأمر بالمعروف وانه عن المنكر

(١) الأمالى فى لغة العرب لأبي على إسماعيل بن القاسم القالى البغدادي ١١٣/١ ، ط دار الكتب العلمية بيروت ١٣٩٨ هـ ، ١٩٧٨ م .

(٢) سورة العصر

(٣) سورة لقمان ، الآية : ١٧

(٤) مفاتيح الغيب للرازي المجلد الثالث عشر ٢٥ / ١٣٠ ، ١٣١ .

(٥) المحرر الوجيز ٤ / ٣٥١ .

واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور" فمن أمر ولم يصبر أو صبر ولم يأمر أو لم يأمر ولم يصبر حصل من هذه الأقسام الثلاثة مفسدة وإنما الصلاح في أن يأمر ويصبر^(١).

ولقد حذا عمير بن حبيب^(٢) حذو لقمان الحكيم في وصيته لولده فقال: "إذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى وليثق بالثواب من الله ، ومن يثق بالثواب من الله لا يجد مس الأذى"^(٣).

فالداعي " يجب أن يكون صبورا على مشاق الدعوة إلى الله وما يحف بها من متاعب وآلام ، تنوء بها الظهر ، وتضعف عن حملها الكواهل -إلا من رحم الله- وذلك أن أصحاب الدعوة إلى الله يطلبون إلى الناس أن يتحرروا من أهوائهم وأهوائهم وأولادهم ومآلوفاتهم ، ويثوروا على شهوات أنفسهم ، ومعبودات آبائهم ، وعادات أقوامهم ، وامتيازات طبقاتهم ، وينزلوا عن بعض ما يملكون إلى إخوانهم ، ويقفوا عند حدود الله فيما أمر ونهى وأحل وحرم ، وأكثر الناس لا يؤمنون بهذه الدعوة الجديدة ؛ فلهذا يقاومونها بكل قوة ، ويحاربون دعائها بكل سلاح ، مدللين بأنهم أكثر مالا ، وأعز نفرا ، وأقوى نفوذا ، وأوسع سلطانا ، فليس أمام دعاة الحق إلا أن يعتصموا باليقين ويتسلحوا بالصبر في وجه القوة الضارية ، والسلطة الطاغية"^(٤).

وعلى الداعي أن يضع نصب عينيه ما أصاب المرسلين من الأذى والاضطهاد ، فنوح -عليه السلام- تحمل الأذى من قومه ألف سنة إلا خمسين عاما وهم يشتمونه ، ويؤذونه ويستهزئون من دعوته ، ويذيقونه أشد أنواع الإيذاء ، فتارة يرمونه بالجنون ، وتارة يسخرون منه وهو يصنع السفينة ، كل ذلك وهو صابر على الدعوة ، محتسب لوجه الله -سبحانه- قال تعالى: "ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون"^(٥) وسيدنا إبراهيم -عليه السلام- دعا قومه إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام ، فما كان منهم إلا أن ألقوه في النار ، وهو مع ذلك صابر على أذاهم حتى أنجاه الله منها فقال للنار: "كوني بردا وسلاما على إبراهيم"^(٦) وسيدنا موسى -عليه السلام- أؤذي في الله إيذاء شديدا فصبر واحتسب حتى قال الله فيه: "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند

(١) الآداب الشرعية والمنح المرعية لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن مفلح المقدسي الحنبلي ص ١٨١ ، فصل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦ م .

(٢) عمير بن حبيب بن خماشة بن جوبير بن عبيد بن عنان بن عامر بن خطمة الأنصاري ، كان ممن بايع تحن الشجرة ، وهو جد أبي جعفر الخطمي (الإصابة ٧١٤/٤).

(٣) الدر المنثور ٦ / ٥٢٣ دار الفكر ، بيروت ١٩٩٣ م .

(٤) الصبر في القرآن ليوسف القرضاوى ص ٤٨ ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة التاسعة ١٩٩١ م .

(٥) سورة العنكبوت ، الآية: ١٤ .

(٦) سورة الأنبياء ، الآية: ٦٩ .

الله وجيهاً^(١) ولقد اختلف في نوع هذا الإيذاء ، فقيل: إيذاؤه بنسبته إلى عيب في بدنه ... فلقد روى عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: " قال رسول الله -ﷺ-: إن موسى كان رجلاً حبياً ستيراً لا يرى من جلده شيئاً استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بنى إسرائيل ، فقالوا : ما يستتر هذا التستر إلا من عيب بجلده إما برص وإما أدره^(٢) وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلاً يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ، ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل إلى ثيابه ليأخذها ، وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر ، فجعل يقول : " ثوبي حجر ، ثوبي حجر " حتى انتهى إلى ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، وأبرأه مما يقولون ، وقام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه ، وطفق الحجر ضرباً بعصاه ، فوالله إن بالحجر لندباً من أثر ضربه ثلاثاً أو أربعاً أو خمسا فذلك قوله: "يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهاً"^(٣) وقال آخرون : بل كان أذاهم إياه ادعاءهم عليه قتل هارون أخيه ، فعن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- في قول الله "لا تكونوا كالذين آذوا موسى" قال: صعد موسى وهارون الجبل فمات هارون ، فقالت بنو إسرائيل : أنت قتلته ، وكان أشد حبا لنا منك وألين لنا منك فأذوه بذلك ، فأمر الله الملائكة فحملته حتى مروا به على بنى إسرائيل ، وتكلمت الملائكة بموته حتى عرف بنو إسرائيل أنه قد مات ، فبرأه الله من ذلك ، فانطلقوا به فدفنوه فلم يطلع على قبره أحد من خلق الله إلا الرخم^(٤) فجعله الله أصم وأبكم^(٥).

قال ابن جرير الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال أن بنى إسرائيل آذوا نبي الله ببعض ما كان يكره أن يؤذى به ؛ فبرأه الله مما آذوه به ، وجائز أن يكون ذلك كان قيلهم إنه أبرص ، وجائز أن يكون ادعائهم عليه قتل أخيه هارون ، وجائز أن يكون كل ذلك ؛ لأنه قد ذكر كل ذلك أنهم قد آذوه به ، ولا قول في ذلك أولى بالحق مما قال الله إنهم آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا"^(٦) وقال ابن كثير: "يحتمل أن يكون الكل مراداً وأن يكون معه غيره"^(٧).

^(١) سورة الأحزاب ، الآية: ٦٩ .

^(٢) الأدره بالضم : نفخة في الخصية (لسان العرب ١ / ٤٤ باب الهمزة) .

^(٣) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الأنبياء ، باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام ، رقم الحديث (٣٤٠٤) كما أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى عليه الصلاة والسلام ٤ / ١٨٤١ ، رقم الحديث (٣٣٩) .

^(٤) الرخم : نوع من الطير معروف واحدته رجمة وهو موصوف بالغدر والمسوق وقيل بالقدر (النهاية في غريب الحديث والأثر ٢ / ٢١٢ باب الراء مع الخاء) .

^(٥) جامع البيان ٢٢ / ٥٢ .

^(٦) جامع البيان ٢٢ / ٥٢ ، ٥٣ .

^(٧) تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ٣ / ٥٢١ .

"وبالجملة ، الإيذاء في القرآن كاف وهو أنهم قالوا له : "فأذهب أنت وربك فقاتلا" (١) ، وقولهم : "لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة" (٢) وقولهم : "لن نصبر على طعام واحد" (٣) إلى غير ذلك" (٤).

فليتأمل الداعية حال سيدنا موسى وصبره على أداء الدعوة ؟! لتكون كلمة الله هي العليا ، ويكون الدين كله لله ... ثم يتأمل حال المسيح -عليه السلام- وصبره على قومه واحتماله في الله ، وما تحمله منهم حتى رفعه الله إليه ، وطهره من الذين كفروا وانتقم من أعدائه ، وقطعهم في الأرض ، ومزقهم كل ممزق ، وسلب ملكهم وفخرهم إلى آخر الدهر .

فإذا ما جئنا إلى النبي محمد -عليه السلام- وتأملنا سيرته مع قومه وصبره في الله ، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله ، وتلون الأحوال عليه من سلم ، وخوف ، وغنى ، وفقر ، وأمن ، وإقامة في وطنه ، وظعن عنه ، وتركه الله ، وقتل أصحابه وأوليائه بين يديه ، وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى ، من القول ، والفعل ، والسحر ، والكذب ، والافتراء عليه ، والبهتان ، وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله ، فلم يؤذ نبي ما أؤذي ، ولم يحتمل في الله ما أحتمله ولم يعط نبي ما أعطيه ، فرفع الله له ذكره ، وقرن اسمه باسمه ، وجعله سيد الناس كلهم ، وجعله أقرب الخلق إليه وسيلة ، وأعظمهم عنده جاهاً ، وأسمعهم عنده شفاعة ، وكانت تلك المحن والابتلاءات عين كرامته ، وهي مما زاده الله بها شرفاً وفضلاً ، وساقه بها إلى أعلى المقامات ، وهذا حال ورثته من بعده ، الأمتل فالأمتل كل له نصيب من المحنة ، يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعتة له" (٥).

فلقد روى عن النبي -عليه السلام- أنه سئل: أى الناس أشد بلاء ؟ قال : "الأنبياء" (٦) ثم الأمتل (٧) فالأمتل فيبتلى الرجل على حسب دينه (٨) فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة (٩) ابتلى على حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشى على الأرض ما عليه خطيئة" (١٠).

(١) سورة المائدة ، من الآية: ٢٤ .

(٢) سورة البقرة ، من الآية: ٥٥ .

(٣) سورة البقرة ، من الآية: ٦١ .

(٤) مفاتيح الغيب المجلد الثالث عشر ٢٥ / ٢٠١ .

(٥) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة لابن القيم الجوزية ١ / ٣٠١ ط دار الكتب العلمية ، بيروت .

(٦) أى هم أشد في الابتلاء ، لأنهم يتلذذون بالبلاء كما يتلذذ غيرهم بالنعماء ، لأنهم لو لم يبتلوا لتوهم فيهم الألوهية ، ولتوهم على الأمة الصبر على البلية . تحفة الأحوذى ٧ / ٧٨ .

(٧) الأمتل افعل من المثالة والجمع أمتال وهم الفضلاء وقيل : أى الأشراف فالأشراف والأعلى فالأعلى رتبة ومنزلة يعنى من هو أقرب إلى الله بلاؤه أشد ؛ ليكون ثوابه أكثر ، تحفة الأحوذى ٧ / ٧٩ .

(٨) أى مقداره ضعفاً وقوة ونقصاً وكمالاً . تحفة الأحوذى ٧ / ٧٩ .

(٩) أى ذا رقة ويحتمل أن يكون رقة اسم كان أى ضعف ولين . تحفة الأحوذى ٧ / ٧٩ .

(١٠) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، باب ما جاء في الصبر على البلاء ٤ / ٦٠١ ، ٦٠٢ ، رقم الحديث (٢٣٩٨) من حديث مصعب بن سعد عن أبيه وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

فلقد تحمل نبينا -ﷺ- الكثير والكثير في سبيل الدعوة إلى الله ما يجعله قدوة لكل داع يقتدي به في الصبر على أداء الدعوة ، فعلى سبيل المثال لا الحصر ما روى عن عائشة -رضي الله عنها- زوج النبي -ﷺ- أنها قالت للنبي -ﷺ-: هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : " لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب^(١) ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال ، لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم على ثم قال : يا محمد ! فقال : ذلك فيما شئت أن أطبق عليهم الأخشبين^(٢) ، فقال النبي (ﷺ) : " بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا"^(٣).

قال ابن حجر : " في هذا الحديث بيان شفقة النبي -ﷺ- على قومه ومزيد صبره وحلمه وهو موافق لقوله تعالى : "فبما رحمة من الله لنت لهم"^(٤) وقوله : "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"^(٥) (١). ولأنه -ﷺ- هو المبعوث رحمة للعالمين ، فلقد كان كلما أصابه حزن وهم ، أمره الله في كثير من الآيات بالصبر على قومه ، ولا يستعجل عذابهم فكل أمر له مقدار عنده ﷻ ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : "واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين"^(٦). "فهو أمر له بإتباع الوحي والتزليل ، فإن وصل إليه بسبب ذلك الاتباع مكروه فليصبر عليه إلى أن يحكم الله فيه ، وهو خير الحاكمين"^(٨).

(١) قرن الثعالب : هو قرن المنازل وهو ميقات أهل نجد ، وهو على مرحلتين من مكة وأصل القرن كل جبل صغير ينقطع من جبل كبير . (صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٥٥) .

(٢) الأخشبين : هما بفتح الهمزة وبالخاء والشين المعجمتين . جبلا بمكة : أبو قبيس والجبل الذي يقابله . (صحيح مسلم بشرح النووي ١٢ / ١٥٥) .

قال ابن الأثير : الأخشب كل جبل خشن غليظ الحجارة . (النهاية لابن الأثير ٢ / ٣٢ ، باب الخاء والشين) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب بدء الخلق ، باب : إذا قال أحدكم : آمين والملائكة في السماء ، فوافقت أحدهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه ٢ / ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، رقم الحديث (٣٢٣١) . كما أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير ، باب ما لى النبي -ﷺ- من أذى المشركين والمنافقين ٣ / ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، رقم الحديث (١٧٩٥) .

(٤) سورة آل عمران ، من الآية: ١٥٩ .

(٥) سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٧ .

(٦) فتح الباري ٦ / ٣٦٤ .

(٧) سورة يونس ، الآية: ١٠٩ .

(٨) مفاتيح الغيب للرازي المجلد التاسع ١٧ / ١٤٠ ، ١٤١ بتصرف .

وقيل إن هذه الآية لما نزلت " جمع النبي الأنصار ولم يجمع معهم غيرهم . فقال : " إنكم ستجدون بعدى أثره حتى تلقوني على الحوض" ^(١). والحديث كما جاء في صحيح البخارى : ما روى : أن ناسا من الأنصار قالوا لرسول الله -ﷺ- حين أفاء الله على رسوله -ﷺ- من أموال هوازن ما أفاء ، فطفق يعطى رجالا من قريش المائة من الإبل ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله -ﷺ- يعطى قريشا ويدعنا وسيوفنا تقطر من دمائهم !! ^(٢) قال أنس : فحدث رسول الله -ﷺ- بمقالتهم فأرسل إلى الأنصار فجمعهم في قبة من أدم ولم يدع معهم أحدا غيرهم ، فلما اجتمعوا جاءهم رسول الله -ﷺ- فقال : " ما كان حديث بلغنى عنكم ؟ " قال له فقهاؤهم : أما ذوو آرائنا يا رسول الله ! فلم يقولوا شيئا ، وأما أناس منا حديثه أسنانهم ، فقالوا : يغفر الله لرسول الله -ﷺ- يعطى قريشا ويترك الأنصار وسيوفنا تقطر من دمائهم ! فقال رسول الله -ﷺ- : "فإني أعطى رجالا حديثي عهدهم بكفر ، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وترجعوا إلى رجالكم برسول الله ؟ فوالله ما تتقلبون به خير مما ينقلبون به " قالوا : بلى يا رسول الله ! قد رضينا . فقال لهم : " إنكم سترون بعدى أثره" ^(٣) شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله تعالى ورسوله -ﷺ- على الحوض" قال أنس فلم نصبر" ^(٣).

كما أمره الله -ﷻ- بالصبر كما صبر نوح -عليه الصلاة والسلام- فقال عز من قائل : "تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين" ^(٤). أى "اصبر يا محمد على القيام بأمر الله وتبليغ رسالته ، وما تلقى من أذى العرب الكفار ، كما صبر نوح على أذى قومه" ^(٥). وقال له : "ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى { فاصبر على ما يقولون" ^(٦).

قال الإمام الرازي : " لما أخبره تعالى بأنه لا يهلك أحدا قبل استيفاء أجله أمره بالصبر على ما يقولون ، ولا شبهة في أن المراد أن يصبر على ما يكرهه من أقوالهم ، فيحتمل أن يكون ذلك قول بعضهم إنه ساحر أو مجنون أو شاعر إلى غير ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد تكذيبهم له فيما يدعيه من النبوة ، ويحتمل أيضا تركهم القبول منه ، لأن كل ذلك مما يغمه ويؤذيه ؛ فرغبه تعالى في الصبر وبعثه على الإدامة على الدعاء إلى الله تعالى وإبلاغ ما حمل من الرسالة وأن لا يكون ما يقدمون عليه صارفا

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد الرابع ٨ / ٢٤٨ ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٩٩٣ م.

(٢) الأثر : فيها لغتان أحدهما ضم الهمزة وإسكان الناء وأصحبهما وأشهرهما بفتحهما جميعا ، والأثر الاستئثار المشترك

أى يستأثر عليكم ويفضل عليكم غيركم بغير حق (صحيح مسلم على شرح النووي ٧ / ١٥١ ، ١٥٢).

(٣) أخرجه البخارى في صحيحه . كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبي يعطى المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ٢ / ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، كما أخرجه في كتاب المغازي ، باب غزوه الطائف ٣ / ١٣٠٨ من حديث أنس بن مالك ، وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب الزكاة ، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه ٢ / ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، رقم الحديث (١٠٥٩) عن أنس أيضا .

(٤) سورة هود ، الآية : ٤٩ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الخامس ٩ / ٣٤ ط ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ١٩٩٣ م.

(٦) سورة طه ، الآية : ١٢٩ وجزء من الآية : ١٣٠ .

له عن ذلك^(١). فالمداومة على الدعوة دليل على ثبات رأيه وعدم تقلبه في الرأي ؛ إذا لو سكنت عن الدعوة لقال الكافرون أنه متقلب الرأي ولا ثبات له ؛ ولهذا قال له -ﷺ- : فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفك الذين لا يوقنون^(٢).

قال الإمام ابن القيم: "أمره أن يصبر ولا ينتسبه بالذين لا يقين عندهم في عدم الصبر ؛ فإنهم لعدم يقينهم عدم صبرهم وخفوا واستخفوا قومهم ، ولو حصل لهم اليقين والحق لصبروا ، وما خفوا ولا استخفوا ، فمن قل يقينه قل صبره ، ومن قل صبره خف واستخف ، فالموقن الصابر رزين ؛ لأنه ذو لب وعقل ، ومن لا يقين له ولا صبر عنده خفيف طائش تلعب به الأهواء والشهوات ، كما تلعب الرياح بالشيء الخفيف"^(٣). "فالصبر وسيلة المؤمنين في الطريق الطويل الشائك الذي قد يبدو أحيانا بلا نهاية ! والثقة بوعده الله الحق ، والثبات بلا قلق ولا زعزعة ولا حيرة ولا شكوك ... الصبر والثقة والثبات على الرغم من اضطراب الآخرين ، ومن تكذيبهم للحق وشكهم في وعد الله ، ذلك أنهم محجوبون عن العلم محرومون من أسباب اليقين ، فأما المؤمنون الواصلون الممسكون بحبل الله ، فطريقهم هو طريق الصبر والثقة واليقين ، مهما بطل هذا الطريق ، ومهما تحتجب نهايته وراء الضباب والغيوم"^(٤).

ولم يكن ابتلاؤه -ﷺ- بدعا في حامل الرسالة ومبلغها ، بل لقد ابتلى إخوانه من الرسل قبله فصبروا ؛ لذا أمره الله بالصبر على التبليغ كما صبر من سبقه ، فقال: "فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم....."^(٥). قال الإمام السعدي: "أمر تعالى رسوله أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له ، وأن لا يزال داعيا لهم إلى الله ، وأن يقتدى بصبر أولى العزم من المرسلين سادات الخلق أولى العزائم والهمم العالية ، الذي عظم صبرهم وتم يقينهم ، فهم أحق الخلق بالأسوة بهم ، والقفو لآثارهم ، والاهتداء بمنارهم ، فامتثل -ﷺ- لأمر ربه فصبر صبرا لم يصبره نبي قبله ، حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة ، قاموا جميعا بصدده عن الدعوة إلى الله ، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة وهو -ﷺ- لم يزل صادعا بأمر الله ، مقيما على جهاد أعداء الله ، صابرا على ما يناله من الأذى حتى مكن الله له في الأرض ، وأظهر دينه على سائر الأديان ، وأتمته على سائر الأمم"^(٦). وقال الإمام الألويسي في معنى الآية : "اصبر كما صبر الرسل المجدون والمجتهدون في تبليغ الوحي ، لا يصرفهم عنه صارف ، ولا يعطفهم عنه عاطف ، والصابرون على أمر الله تعالى فيما عهده سبحانه -إليهم أو قضاه وقدره- ﷻ".

(١) مفاتيح الغيب للرازي المجلد الحادي عشر ٢١ / ١١٥ .

(٢) سورة الروم ، الآية: ٦٠ .

(٣) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص ٥٥ ، دار الفكر .

(٤) في ظلال القرآن لسيد قطب ، المجلد الخامس ٢١ / ٢٧٧٨ .

(٥) سورة الأحقاف ، من الآية: ٣٥ .

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لـ السعدي ص ٧٨٤ .

عليهم بواسطة أو بدونها ^(١). والعزيمة كما قال الراغب : " عقد القلب على إمضاء الأمر ، يقال عزمتم الأمر وعزمتم عليه واعتزمت ^(٢) .

ولقد ورد العديد من الأقوال في تعيين أولى العزم المذكورين في الآية ^(٣) وأصحها أنهم : " نوح و إبراهيم وموسى وعيسى ، وأما سيدنا محمد -ﷺ- فهو وإن كان من أولى العزم إلا أنه لا يدخل في سياق الآية ؛ لأنها وردت مخاطبة إياه بالصبر كصبر إخوانه ، فلو دخل في سياق الآية للزم أمره بالصبر كصبر نفسه ولا يكاد يصح ذلك . وهو ما أفاده الإمام الألوسي في روحه ^(٤) . وقوله : " ولا تستعجل لهم " أى بالدعاء عليهم ، وقيل : في إحلال العذاب بهم فإنه أبعد غياتهم يوم القيامة ، ومفعول الاستعجال محذوف وهو العذاب ^(٥) . قيل إن النبي -ﷺ- ضجر من قومه بعض الضجر ، وأحب أن ينزل الله العذاب بمن أبى من قومه فأمر بالصبر وترك الاستعجال ^(٦) .

فالداعي إلى الله يجب أن يكون متقائلاً صبوراً على النصر فلا يمل ولا يفتر ولا يضجر ، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله المرة تلو الأخرى ، لذلك نهى الله -ﷻ- رسوله -ﷺ- أن يحذو حذوا أخيه يونس عليه الصلاة والسلام في ضجره وعجلته على قومه فقال : " فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم " ^(٧) قال الإمام الرازي : " قوله : " فاصبر لحكم ربك " فيه وجهان : الأول : فاصبر لحكم ربك في إهمالهم وتأخير نصرتك عليهم ، والثاني : فاصبر لحكم ربك في أن أوجب عليك التبليغ والوحي وأداء الرسالة ، وتحمل ما يحصل بسبب ذلك من الأذى والمحنة " ^(٨) .

وقوله : " ولا تكن كصاحب الحوت " أى لا يوجد منك ما وجد منه من الضجر والمغاضبة فتبتلى ببلائه ^(٩) . قال الإمام السعدي : " لا تشابه في الحالتي التي أوصلته وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت ، وهو عدم صبره على قومه الصبر المطلوب منه وذهابه مغاضباً لربه " ^(١٠) .

وملخص تجربة يونس -ﷺ- التي يذكر الله بها محمداً -ﷺ- لتكون له زاداً ورصيдаً ، وهو خاتم النبيين ، الذي سبقته تجارب النبيين أجمعين في حقل الرسالة ؛ ليكون هو صاحب الحصاد الأخير...

(١) روح المعاني ٢٦ / ٣٤ .

(٢) المفردات للراغب ص ٣٣٤ ، كتاب العين .

(٣) ينظر إليها في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثامن ١٦ / ١٤٥ ، ١٤٦ .

(٤) ينظر روح المعاني ٢٦ / ٣٥ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد الثامن ١٦ / ١٤٦ .

(٦) مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الرابع عشر ٢٨ / ٣١ .

(٧) سورة القلم ، الآية : ٤٨ .

(٨) مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الخامس عشر ٢٩ / ٨٦ .

(٩) الكشف ٤ / ٦٠٠ .

(١٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لـ السعدي ص ٨٨١ .

فيعينه هذا على عبئه الثقيل الكبير ، عبء هداية البشرية جميعها لا قبيلة ولا قرية ولا أمة ، وعبء هداية الأجيال جميعها لا جيل واحد ولا قرن واحد ، كما كانت مهمة الرسل قبله ، وعبء إمداد البشرية بعده ، بكل أجيالها وكل أقوامها ، بمنهج دائم ثابت صالح لتلبية ما يجد في حياتها من أحوال وأوضاع وتجارب ، وكل يوم يأتي بجديد ... ملخص تلك التجربة-أن يونس-عليه السلام أرسله الله إلى أهل قرية ، فاستبطأ إيمانهم ، وشق عليه تلكهم مغاضبا قائلا في نفسه : إن الله لن يضيق على بالبقاء بين هؤلاء المتعنتين المعاندين ، وهو قادر على أن يرسلني إلى قوم آخرين ! وقد قاده الغضب والضيق إلى شاطئ البحر ، حيث ركب سفينة فلما كانوا في وسط اللج ثقلت السفينة وتعرضت للغرق ، فأفرعوا بين الركاب ؛ للتخفف من واحد منهم ، لتخف السفينة فكانت القرعة على يونس ، فألقوه في اليم فابتلعه الحوت ؛ عندئذ نادى وهو في هذا الكرب الشديد في الظلمات في بطن الحوت وفي وسط اللجة ، نادى ربه : " لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين " فتدراكه نعمة من ربه ، فنبذه الحوت على الشاطئ لحما بلا جلد وحفظ الله حياته بقدرته التي لا يقيدنها قيد من مألوف البشر المحدود ! .. هذه هي التجربة التي مر بها صاحب الحوت ، يذكر الله بها رسوله محمد-صلى الله عليه وسلم في موقف العنت والتكذيب بعد ما أخلاه من المعركة كما هي الحقيقة ، وأمره بتركها له يتولاها كما يريد ، وقتما يريد ، وكلفه الصبر لحكم الله وقضائه في تحديد الموعد ، وفي مشقات الطريق حتى يحين الموعد المضروب ! ففي الطريق مشقات كثيرة مشقات التكذيب والتعذيب ، ومشقات الالتواء والعناد ، ومشقات انتفاش الباطل وانتفاخه ، ومشقات افتتان الناس بالباطل المزهو المنتصر فيما تراه العيون ، ثم مشقات إمساك النفس على هذا كله راضية مستقرة مطمئنة إلى وعد الله الحق ، لا ترتاب ولا تتردد في قطع الطريق ، مهما تكن مشقات الطريق وهو جهد ضخم مرهق يحتاج إلى عزم وصبر ومدد من الله وتوفيق ^(١).

"إن أصحاب الدعوات لابد أن يحتملوا تكاليفها ، وأن يصبروا على التكذيب بها ، والإيذاء من أجلها ولابد أن يثابروا ويثبتوا ، ولابد أن يكرروا الدعوة ويبدئوا فيها ويعيدوا ، فلا يجوز لهم أن يأسوا من صلاح النفوس واستجابة القلوب ، مهما واجهوا من إنكار وتكذيب ، ومن عتو وجحود ، فإذا كانت المرة المائة لم تصل إلى القلوب ، فقد تصل المرة الواحدة بعد المائة... وقد تصل المرة الواحدة بعد الألف ولو صبروا هذه المرة وحاولوا ولم يقنطوا لتفتحت لهم أوصاد القلوب ! إن طريق الدعوات ليس هينا لنا ، واستجابة النفوس للدعوات ليست قريبة يسيرة ، فهناك ركام من الباطل والضلال والتقاليد والعادات ، والنظم والأوضاع ، يجثم على القلوب ، ولابد من إزالة هذا الركام ، ولابد من استحياء القلوب بكل وسيلة ، ولابد من لمس جميع المراكز الحساسة ، ومن محاولة العثور على العصب الموصل واحدى اللمسات ستصادف مع المثابرة والصبر والرجاء ، ولمسة واحدة قد تحول الكائن البشرى تحويلا تاما في لحظة متى أصابت اللمة موضعها ، وإن الإنسان ليدهش أحيانا وهو يحاول ألف محاولة ، ثم إذا لمسة عابرة تصيب موضعها في الجهاز البشرى فينفض كله بأيسر مجهود ، وقد أعيا من قبل على كل

(١) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، المجلد السادس ٢٩ / ٣٦٧٠ ، ٣٦٧١ ، بتصرف.

الجهود ! وأقرب ما يحضرني للتمثيل لهذه الحالة جهاز الاستقبال عند البحث عن محطة إرسال.... إنك لتحرك المشير مرات كثيرة ذهابا وإيابا فتخطئ المحطة وأنت تدقق وتصوب ، ثم إن حركة عابرة من يدك ، فتتصل الموجة وتتطلق الأصدااء والأنغام !! إن القلب البشري هو أقرب ما يكون إلى جهاز الاستقبال ، وأصحاب الدعوات لابد أن يحاولوا تحريك المشير ليتلقى القلب من وراء الأفق ، ولمسة واحدة بعد ألف لمسة قد تصله بمصدر الإرسال !! إنه من السهل على صاحب الدعوة أن يغضب ؛ لأن الناس لا يستجيبون لدعوته ، فيهجر الناس.... إنه عمل مريح قد يفئ^(١) الغضب ، ويهدئ الأعصاب ، ولكن أين هي الدعوة ؟ وما الذي عاد عليها من هجران المكذبين المعارضين ؟ إن الدعوة هي الأصل لا شخص الداعية ! فليضق صدره ، ولكن ليكظم ويمض ، وخير له أن يصبر فلا يضيق صدره بما يقولون ! إن الداعية أداة في يد القدرة ، والله أرعى لدعوته وأحفظ ، فليؤد هو واجبه في كل ظرف ، وفي كل جو ، والبقية على الله ، والهدى هدى الله^(٢).

والواجب على الداعية أن يعلم أنه لن يستجيب كل الناس لما يقول ، وعليه أن يتذكر قول النبي - ﷺ -: "إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء"^(٣) ولقد قال الله لرسوله - ﷺ - إمام الدعاة وسيدهم وقادتهم وقوتهم: "قلعك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا"^(٤) قال ابن كثير في تفسيره: "يقول تعالى مسلينا رسوله - ﷺ - في حزنه على المشركين لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال تعالى: "فلا تذهب نفسك عليهم حسرات" وقال: "ولا تحزن عليهم" وقال: "لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين" باخع أى مهلك نفسك بحزنك عليهم... أى لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات"^(٥). لذلك ظل رسول الله - ﷺ - متفائلا طول حياته بظهور الإسلام وعلو كلمته ، وانتشاره في بقاع الأرض .. نعم لقد كان - ﷺ - متفائلا حتى وهو بمكة يلقى هو وأصحابه أشد أنواع الإيذاء والاضطهاد ، فها هو - ﷺ - يملأ قلوب أصحابه بالنصر ، مبددا ما في أنفسهم من الحزن على فعل الكفار بهم حين اشتكوا شدة الإيذاء مستبطين النصر ، فقد روى عن خباب بن الأرت^(٦) قال : شكونا إلى رسول الله - ﷺ - وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة فقلنا ألا تستنصر لنا ، ألا تدعو لنا ، فقال : "قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل ، فيحفر له في

(١) فئ الرجل وفئ غضبه يفئوه فئاً : كسر غضبه وسكنه بقول أو غيره ، باب الفاء ، لسان العرب ٥ / ٣٣٤٨ .

(٢) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، المجلد الرابع ١٧ / ٢٣٩٣ ، ٢٣٩٤ بتصرف يسير .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر ، باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ٤ / ٢٠٤٥ ، رقم الحديث (٢٦٥٤) ، عن عبد الله بن عمر بن العاص .

(٤) سورة الكهف ، الآية : ٦ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ٣ / ٧٣ ط ، دار الفكر ، بيروت .

(٦) خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد التميمي ، صحابي من السابقين ، قيل أسلم سادس ستة ، شهد المشاهد كلها ونزل الكوفة فمات بها وهو ابن ثلاث وسبعين سنة ، روى له البخاري ومسلم وغيرهما ، توفي ٣٧ هـ ، ٦٥٧ م (الأعلام

الأرض ، فيجعل فيها ؛ فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط^(١) الحديد ما دون لحمه وعظمه فما يصدده ذلك عن دينه ، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون^(٢).

هكذا يجب أن يكون الداعي متفائلاً ، لا يترك لليأس مدخلا إلى نفسه في لحظة من اللحظات ، وعليه أن يستمر في دعوته ، ويجدد في أسلوبه ووسائله ، دون ملل أو فتور؛ لأن واجبه هو البلاغ والإنذار، قال الإمام النووي-رحمه الله-: " لا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه ، بل يجب عليه فعله ، فإن الذكرى تنفع المؤمنين ، فإن الذي عليه الأمر والنهي لا القبول"^(٣). وكما يقول د/يوسف القرضاوى في كتابه : " لا يتحقق النصر بين عشية وضحاها ، ولا تشرق شمس إلا بعد ليل طويل حالك من الشدائد والمحن المتعاقبة تزيغ أهولها الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر ، ويظن الناس بالله الظنون... بعدها يجيئ الغوث للملهوف والفرج للمكروب"^(٤).

وكما يجب على الداعي أن يكون متفائلاً ، " يجب عليه أيضا أن يكون مترويا طويل البال فلا يستعجل الإجابة ، بل يجب أن يجعل لنفسه " وقتا لاكتشاف مواطن الخير في نفس المدعو ، والوصول إلى الطريق القريب لاستغلال مواهبه ، والداعية المتحلي بهذه الصفة يتيح الفرصة للمدعو أن يتعلم ويسأل ، ويقتنع فتتضح شخصيته نضجا يساعد على وصوله إلى الالتزام والعمل بهذا الدين ، والخطر في العجلة يكمن في تسرع الداعية في العمل مع المدعو فيستحث خطواته ، ويستعجل حركاته ، ويجذبه بحماس زائد ، فإن المدعو تنقطع أنفاسه فينفر الداعية ويكسل ، أو تتزاحم الأفكار عليه فلا يقتنع بما يسمع ، كما يكمن الخطر كذلك في رمي الداعية المدعو بالكسل والبلادة وأنه بطيء الخطا قليل الحركة ، عديم المواهب ، فيرفع عنه يديه ، ويترك العمل معه ، فيفقد الوقت الذي أمضاه معه ويخسر الجهد الذي بذله ، وتلك خسارة ضخمة في ميزان العمل الدعوى !! لذا كان التأني والتروي وعدم العجلة سبيلا إلى الخير المنشود للدعوة والداعية والمدعو"^(٥).

(١) أمشاط جمع مشط بكسر الميم وبضمها يقال مشاط وأمشاط كرماح وأرماح . فتح الباري ٧ / ٢٠٤ ، قال صاحب المصباح : (المشط) الذي يتمشط به بضم الميم ، وتميم تكسر وهو القياس ؛ لأنه آلة ، والجمع (أمشاط) ، (والمشاطة) بالضم ما يسقط من الشعر عند مشطه . (المصباح المنير ٢ / ٥٧٤ ، كتاب الميم) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الإكراه ، باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر ٥ / ٢١٧٠ ، رقم الحديث (٦٩٤٣) .

كما أخرجه في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة في الإسلام ٣ / ١١١٤ رقم الحديث (٣٦١٢) .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ٢ / ٢٣ .

(٤) الصبر ليوسف القرضاوى ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

(٥) الدعوة الفردية فقها وتطبيقا للدكتور/ يسرى محمد هانى ، ص ٨٢ ، ٨٣ ، بتصرف يسير .

الصبر في تلقى العلم : إذا كنا في معرض الحديث عن صبر الداع وهو المعلم فيجب التنبيه أيضا على صبر المدعو وهو المتعلم ، فإن المتلقي للعلم يجب أن يكون صبورا على تلقيه ، قال الإمام الشافعي -رحمه الله- في ديوانه :

"اصبر على مر الجفا من معلم
فإن رسوب العلم في نفراته
ومن لم يذق مر التعلم ساعة
تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاتته التعليم وقت شبابه
فكبر عليه أربعا لوفاته" (١).

فهذه أبيات عظيمة من الإمام الشافعي تبين لنا أهمية الصبر على التعلم ، حيث جعل العلم حياة وضده هو الموت ، قال معاذ بن جبل -رضي الله عنه-: "عليكم بالعلم فإن طلبه الله عبادة ، ومعرفة خشية ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، ومذاكرته تسبيح ، به يعرف الله ويعبد ، وبه يمجّد الله ويوحد ، ويرفع الله بالعلم أقواما ، يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم وينتهون إلى رأيهم" فجعل البحث عن العلم من الجهاد ، ولا بد في الجهاد من الصبر ولهذا قال تعالى: "والعصر { } إن الإنسان لفي خسر { } إيا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" (٢) فالعلم النافع هو أصل الهدى ، والعمل بالحق هو الرشاد ، وضد الأول الضلال ، وضد الثاني الغي ، فالضلال العمل بغير علم ، والغى إتباع الهوى ، وقال تعالى: "والنجم إذا هوى { } ما ضل صاحبكم وما غوى" (٣) فلا ينال الهدى إلا بالعلم ولا ينال الرشاد إلا بالصبر (٤).

فيجب على المرء الصبر على معلمه ؛ ليحصل منه على العلم النافع في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا : فبالعلم يصل الإنسان إلى أرقى الدرجات وأعلاها ويكتسب صاحبه وقارا واحتراما بين الناس ، وأما في الآخرة : فهو العمل الذي لا ينقطع ثوابه بعد موت صاحبه مصداقا لقول رسول الله -ﷺ-: "إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له" (٥).

وللصبر على التعلم فوائد كثيرة استنبطها المفسرون من الخطاب الموجه من الله -ﷻ- لحبيبيه ومصطفاه -ﷺ- حينما تعجل بتلاوة القرآن في بداية نزوله عليه مخافة النسيان: "ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه" (٦). من هذه الفوائد:

(١) ديوان الشافعي ص ٣٣ .

(٢) سورة العصر .

(٣) سورة النجم ، الآيتان : ١ ، ٢ .

(٤) مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠ / ٣٩ ، ٤٠ .

(٥) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه كتاب الوصية ، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ٣ / ١٢٥٥ ، عن أبي هريرة .

(٦) سورة طه ، من الآية : ١١٤ .

- "أن المستمع للعلم ينبغي أن يتأنى ويصبر حتى يفرغ المملى والمعلم من كلامه المتصل بعبءه ببعض ، فإذا فرغ منه سأل إن كان عنده سؤال ، ولا يبادر بالسؤال ، وقطع كلام ملقى العلم فإنه سبب للحرمان"^(١).

- ومنها: "أن التدبر في العلم أنفع من الاستعجال المتعب للبال المكدر للحال وأعون على الحفظ فمن وعى شيئاً حق الوعي حفظه غاية الحفظ"^(٢).

- ومنها : "أن العلم خير وكثرة الخير مطلوبة ، والطريق إليها الاجتهاد ، والشوق للعلم وسؤال الله والاستعانة به والافتقار إليه في كل وقت"^(٣) وصدق صاحب الظلال إذ يقول: "وما العلم إلا ما يعلمه الله . فهو الباقي الذي ينفع ولا يضيع ويثمر ولا يخيب"^(٤) ولقد سبق الحديث عن قصة موسى مع الخضر -عليهما السلام- وما فات موسى عليه السلام من العلم الكثير بسبب تعجله بالإنكار على معلمه ، فيجب على المتعلم أن يأخذ العبر والمواعظ من تلك القصة ، ونزيد هنا ما ذكره الإمام الغزالي في شأن هذه القصة فيقول: "نبه تعالى بقصة الخضر وموسى -عليهما السلام- حيث قال الخضر : " قال إنك لن تستطيع معي صبراً { وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً"^(٥) ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال: " فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً"^(٦) ثم لم يصبر ولم يزل في مرادته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجمل ، كل متعلم استبقى لنفسه رأياً واختياراً دون اختيار المعلم فأحكم عليه بالإخفاق والخسران ، فإن قلت : فقد قال الله تعالى: "فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون"^(٧)! فالسؤال مأمور به ، فأعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه ، فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليهما السلام من السؤال ؛ أي دع السؤال قبل أوانه ، فالمعلم أعلم بما أنت أهل له ، وبأوان الكشف ، وما لم يدخل أوان الكشف في كل درجة من مراق الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه.

وقد قال علي -عليه السلام-: "إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ، ولا تعنته في الجواب ، ولا تلج عليه إذا كسل ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ، ولا تفش له سرا ، ولا تغتابن أحدا عنده ، ولا تطلبين عثرته ،

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لـ السعدي ص ٥١٤ .

(٢) نظم الدرر ٢ / ٣٥٢ بتصريف .

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان لـ السعدي ص ٥١٤ .

(٤) في ظلال القرآن ١٦ / ٢٣٥٣ .

(٥) سورة الكهف ، الآيتان: ٦٧ ، ٦٨ .

(٦) سورة الكهف ، من الآية: ٧٠ .

(٧) سورة النحل ، من الآية: ٤٣ .

وإن زل قبلت معذرتي ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى ما دام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته^(١).

كانت هذه هي حقوق المعلم على تلميذه كما وضحتها الإمام على -كرم الله وجهه- وهناك حق آخر يجب التنبيه عليه وهو الصبر على المعلم وقت انشغاله بأمر ما ، وعدم المبادرة بمناداته حتى يفرغ من عمله ، ولقد تمثل هذا الحق في الخطاب الذي وجهه الله لجماعة من أجلاف العرب نادوا رسول الله -ﷺ- في وقت الظهيرة وهو مع زوجاته ، واستعجلوا خروجه ، ولم ينتظروا حتى يخرج إليهم ، فعاتبهم الله -ﷻ- معلما إياهم أنه لا ينبغي العجلة في الأمور ، وأن الأولى بهم الصبر والتأني والانتظار تأديبا مع حضرة خاتم الأنبياء والمرسلين ، قال تعالى حاكيا عن هؤلاء القوم: "إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون { ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم }"^(٢). ولقد ورد في سبب نزول هذه الآية روايات متعددة منها وهو الأقرب للصواب: "أنها نزلت في جفاة بنى تميم ، قدم وفد منهم على النبي -ﷺ- فدخلوا المسجد ، فنادوا النبي -ﷺ- من وراء حجرته أن اخرج إلينا يا محمد فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين ، فأذى ذلك من صياحهم النبي -ﷺ- فخرج إليهم ، فقالوا : إنا جنناك يا محمد نفاخرك ونزل فيهم : إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون"^(٣).

ومنها : "أن رسول الله بعث سرية إلى بنى العنبر وأمر عليهم عيينة بن حصن الفزاري"^(٤) فلما علموا بذلك هربوا وتركوا عيالهم ، فسباهم عيينة ، فجاء رحالهم يعذون الزراري ، فقدموا وقت الظهيرة ورسول الله -ﷺ- قائل ، فجعلوا ينادون يا محمد اخرج إلينا حتى أيقظوه فنزلت هذه الآية ، قاله ابن عباس^(٥). ومن الروايات أيضا الواردة في سبب النزول: أن ناسا من العرب قال بعضهم لبعض : انطلقوا

(١) إحياء علوم الدين للغزالي ١ / ٥٠ ، ٥١ باب في آداب المتعلم والمعلم .

(٢) سورة الحجرات ، الآيتان : ٤ ، ٥ .

(٣) أسباب النزول للواحدي ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، وانظر سنن الترمذي ، كتاب تفسير القرآن ، من سورة الحجرات ، باب إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ٥ / ٣٨٧ ، ٣٨٨ ، عن البراء بن عازب باختصار وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب .

(٤) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر بن عمرو بن جوية بالجيم مصغرا بن لوان بن ثعلبة بن عدى بن فزارة الفزاري أبو مالك يقال كان اسمه حذيفة فلقب عيينة لأنه كان أصابته شجة فحفظت عيناه كان من المؤلفة ، أسلم قبل الفتح وشهدا وشهد حنيناً والطائف ، بعثه النبي لبني تميم فسبى بعض بني العنبر ثم كان ممن ارتد في عهد أبي بكر ومال إلى طليحة فبايعه ثم عاد إلى الإسلام وكان فيه جفاء سكان البوادي ، ومات مطعوناً بالإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر — ٤ ص ٢٦٧ ط ، دار الجيل ، بيروت .

(٥) زاد المسير ٧ / ٤٥٩ ط ، المكتب الإسلامي ، بيروت .

بنا إلى هذا الرجل ، فإن يكن نبيا نكن أسعد الناس به ، وإن يكن ملكا نعش في جناحه ، فجاءوا فجعلوا ينادون يا محمد ، يا محمد ، فنزلت هذه الآية^(١).

ونلاحظ من خلال هذه الراويات أنها متفقة على أنهم استعجلوا الرسول بالخروج وأساءوا الأدب في حضرته ، وإن اختلفت في سبب المناداة والحاجة التي من أجلها نادوا رسول الله ﷺ وهو في حجرته . فالرواية الأولى : توضح أن السبب هو المفاخرة ، والثانية : مفاداة الأسرى ، الثالثة : الإيمان به والإذعان له .

وسواء نادى القوم رسول الله ﷺ - لغرض المفاخرة ، أو لغرض فداء أسراهم ، فلقد استعجلوا بمناداة النبي ﷺ - في وقت القيلولة ، وهو الوقت الذي لا ينبغي المناداة فيه ؛ ولذا فلقد عاتبهم الله تعالى لتركهم الأدب في حضرته ﷺ - عند عرض الحاجة عليه ، والعذر لهؤلاء ، لعدة أسباب : الأول : أنهم من أهل البادية ويغلب عليهم الجفاء والغلظة ، الثاني : أنهم كانوا حديثي العهد بالإسلام ، ولم يتأدبوا بآدابه بعد ، وهذه الأسباب قد أشار إليها الدكتور / عبد الكريم الخطيب في تفسيره إذ يقول عند توضيح معنى هذه الآية : " هو التفات إلى النبي الكريم بهذا العذر الذي يقدمه الله ﷻ - إليه ، عن هذا الجفاء وتلك الغلظة ، مما يغلب على أهل البادية الذين يجيئون إلى النبي ، فينادونه من وراء الحجرات التي كان يتخذها النبي سكنا له مع أهله.. فهؤلاء الأعراب لم يتأدبوا بآداب الإسلام بعد ، ولم تظهر عليهم آثاره ، وإنهم لجديرون بأن يقابلوا من النبي بالتسامح ، وأن يعذروا لهذا الجفاء الباد منهم"^(٢).

وكلمة (وراء) المذكورة في الآية بمعنى خارج الحجرات سواء أكانوا خلفها أو قدامها ، وهذا ما أفاده الإمام الألويسي في روح المعاني إذ يقول: قوله تعالى : " إن الذين ينادونك من وراء الحجرات " أي من خارجها خلفها أو قدامها على أن (وراء) من المواراة والاستتار فما استتر عنك فهو وراء خلفا أو قداما إذا لم تره ، فإذا رأيته لا يكون من ورائك ، فالوراء بالنسبة إلى من في الحجرات ما كان خارجها لتواريه عن فيها"^(٣). والحجرات : جمع حجرة ، كالحجرات جمع غرفة ، والظلمات جمع ظلمة : "وهي الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها"^(٤). قال صاحب المصباح المنير : " الحجرة البيت ، والجمع (حجر) ، و(حجرات) مثل غرفة ، وغرفات في وجوها"^(٥). والمراد بها في الآية كما قال صاحب روح المعاني : "حجرات نسائه ﷺ - وكانت تسعا لكل منهن حجرة ... وهذا اللفظ يدل على بلاغة القرآن الكريم ؛ لأنه كناية عن خلوته ﷺ - بنسائه لأنها معدة لها ، ولم يقل :حجرات نسائك ولا

(١) رواه الطبري في تفسيره ٢٦ / ١٢١ ، عن زيد بن أرقم ، وأخرجه الطبراني في الكبير ٥ / ٢١١ ، وذكره الهيثمي في مجمع ٧ / ١٠٨ وقال فيه داود بن راشد ، وثقه بن حبان وضعفه ابن معين وبقية رجاله ثقات .

(٢) التفسير القرآني للقرآن المجلد السابع ٢٦ / ٤٣٨ .

(٣) روح المعاني للألويسي ٢٦ / ١٣٩ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثامن ١٦ / ٢٠٤ ، بتصريف .

(٥) المصباح المنير ١ / ١٢٢ ، كتاب الحاء .

حجراتك ، توقيرا له -ﷺ- وتحاشيا عما يوحشه" (١). قال الإمام الرازي: "قوله (الحجرات) إشارة إلى كون النبي -ﷺ- في خلوته التي لا يحسن في الأدب إتيان المحتاج إليه في حاجته في ذلك الوقت ، بل الأحسن التأخير وإن كان في ورطة الحاجة" (٢).

ومن الواضح أن ذكر لفظ الحجرات تبين لنا شناعة ما فعله هؤلاء القوم في حضرة النبي -ﷺ- فنحن في حياتنا هذه ، نلاحظ أن الناس في وقت القيلولة ، لا يذهب بعضهم إلى بعض -وهذا على الأغلب- بل ينتظرون إلى ما بعد الظهر ؛ لعلمهم أن هذا الوقت هو لاستراحة الناس عند العودة من عملهم ؛ ولذا فقد جاء وصف القرآن لهم بعدم وجود العقل عند أكثرهم ، قال: "أكثرهم لا يعقلون" ونفى العقل عنهم مراد به عقل التأدب الواجب في معاملة النبي -ﷺ- أو عقل التأدب المغفول عنه في عاداتهم التي اعتادوها في الجاهلية من الجفاء والغلظة والعنجهية ، وليس فيها تحريم ، ولا ترتب ذنب" (٣). قال الإمام القشيري: " لو عرفوا قدرك لما تركوا حرماتك والتزموا هيبتك" (٤).

وقد يتساءل سائل : لم جاء التعبير القرآني بلفظ أكثرهم ولم يجئ بلفظ كلهم أو جميعهم ؟ والجواب كما قال صاحب التفسير الكبير: "قوله تعالى (أكثرهم) فيه وجهان ، أحدهما : أن العرب تذكر الأكثر وتريد الكل ، وإنما تأتي بالأكثر احترازا عن الكذب واحتياطا في الكلام ؛ لأن الكذب مما يحبط به عمل الإنسان في بعض الأشياء فيقول الأكثر وفي اعتقاده الكل ، ثم إن الله تعالى مع إحاطة علمه بالأمور أتى بما يناسب كلامهم ، وفيه إشارة إلى لطيفة وهي أن الله تعالى يقول : أنا مع إحاطة علمي بكل شيء جريت على عادتكم استحسانا لتلك العادة ، وهي الاحتراز عن الكذب فلا تتركوها ، واجعلوا اختياري تلك في كلامي دليلا قاطعا على رضائي بذلك. ثانيهما : أن يكون المراد أنهم في أكثر أحوالهم لا يعقلون ، وتحقيق هذا هو أن الإنسان إذا اعتبر مع وصف ، ثم اعتبر مع وصف آخر يكون المجموع الأول غير المجموع الثاني ، مثاله الإنسان يكون جاهلا وفقيرا فيصير عالما وغنيا ، فيقال في العرف ، زيد ليس هو الذي رأيته من قبل ، بل الآن على أحسن حال ، إذا علم هذا فهم في بعض الأحوال إذا اعتبرتهم مع تلك الحالة مغايرين لأنفسهم إذا اعتبرتهم مع غيرها . فقال تعالى: "أكثرهم لا يعقلون". وفيه وجه ثالث : " وهو أن يقال لعل منهم من رجع عن تلك الأهواء ، ومنهم من استمر على تلك العادة الرديئة ، فقال (أكثرهم) إخراجا لمن ندم منهم" (٥).

وهكذا فإن العقل يقتضي مراعاة الأدب مع حضرة النبي -ﷺ- لا سيما وهو سيد الخلق أجمعين ، ولا ريب في أن النداء من وراء الحجرات فيه كلفة ، ومشقة عليه -ﷺ- بخروجه أو مشيه إلى المناد ، وقد

(١) روح المعاني للألويسي ٢٦ / ١٣٩ بتصرف.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠٠ .

(٣) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥ / ٢٢٥ .

(٤) لطائف الإشارات ٣ / ٤٣٨ .

(٥) مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠١ .

يكون مشتغلا بأمر ما كمناجاته ربه -ﷻ- فيقطعوا عليه علاقته بربه ، فكان الواجب عليهم التأني والتمهل دون إزعاجه ، فهذا ما يقتضيه العقل وهو الأحسن والأفضل ؛ ولذا قال تعالى: "ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم".

فمن باب الاحترام أن يصبروا حتى يخرج هو إليهم ، ولا يكلموه حتى يبتدئ هو بالكلام ، فهذا من توقيره -ﷺ- قال الألوسي: "أى لو ثبت صبرهم وانتظارهم حتى تخرج ، لكان الصبر خيرا من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم النبي -ﷺ- الموجبين للنشأ والثواب"^(١). فهذه الآية : " إشارة إلى حسن الأدب الذى على خلاف ما أتوا به من سوء الأدب فإنهم لو صبروا لما احتاجوا إلى النداء ، وإذا كنت تخرج إليهم فلا يصح إتيانهم فى وقت اختلاطك بنفسك أو بأهلك أو ببربك ، فإن للنفس حقا ولأهل حقا"^(٢) قال الإمام القشيري-رحمه الله-: "ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم ولم يستعجلوا ولم يوقظوك وقت القبلولة بمناداتهم لكان خيرا لهم"^(٣). والخيرية في الدين والدنيا ... أما الدين : فلأن الصبر طاعة لله ، ومراعاة للأدب فى حضرة نبيه -ﷺ- وأما الدنيا ، فقد قيل : "إنهم جاعوا شفعاء فى أسرى بنى عنبر فأعتق رسول الله -ﷺ- نصفهم وفادى على النصف-ولو صبروا لأعتق جميعهم بغير فداء"^(٤).

أيضا الصبر على مناداته -ﷺ- "كان سيكسبهم وقارا بين أهل المدينة ويستدعى لهم الإقبال من الرسول -ﷺ- إذ يخرج إليهم غير كاره لندائهم إياه"^(٥). وكلمة "خيرا" فيها وجهان ذكرهما ابن عاشور فى التحرير والتنوير إذ يقول: "فقوله "خيرا" يجوز أن يكون اسم تفضيل ، ويكون فى المعنى : لكان صبرهم أفضل من العجلة ، ويجوز أن يكون اسما ضد الشر ، أى لكان صبرهم خيرا لما فيه من محاسن الخلق بخلاف ما فعلوه فليس فيه خير ، وعلى الوجهين فالآية تأديب لهم وتعليمهم محاسن الأخلاق وإزالة العوائد الجاهلية الذميمة"^(٦). وفي التعبير بقوله: "إليهم" إشعار بأنه -ﷺ- لو خرج لا لأجلهم ينبغي أن يصبروا حتى يفاتحهم بالكلام أو يتوجه إليهم ، فليس زائدا بل قيد لا بد منه"^(٧).

ولقد تجلى حلم الله -ﷻ- بهؤلاء فلم يعاقبهم علي صدور هذا الذنب العظيم منهم تجاه نبيه -ﷺ- بل غفر لهم ورحمهم لحدثتهم في الإسلام ، وجهلهم بطريقة معاملة الرسول -ﷺ- فقال -ﷺ- معجلا البشارة لهم: "والله غفور رحيم". قال الإمام الرازي: "قوله تعالى "والله غفور رحيم" تحقيقا لأمرين: أحدهما: لسوء

(١) روح المعاني للألوسي ٢٦ / ١٤٣.

(٢) مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠١ .

(٣) لطائف الإشارات ٣ / ٤٣٨ .

(٤) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثامن ١٦ / ٢٠٤ بتصريف دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .

(٥) التحرير والتنوير ٢٥ / ٢٢٧ بتصريف .

(٦) التحرير والتنوير لابن عاشور ٢٥ / ٢٢٧ .

(٧) روح المعاني ٢٦ / ١٤٣.

صنيعهم في التعجل ، فإن الإنسان إذا أتى بقبيح ولا يعاقبه الملك أو السيد يقال ما أحلم سيده لا لبيان حلمه ، بل لبيان عظيم جناية العبد ، وثانيهما : لحسن الصبر يعني بسبب إتيانهم بما هو خير يغفر الله لهم سيئاتهم ، و يجعل هذه الحسنه كفارة لكثير من السيئات ، كما يقال للأبعد إذا رجع إلي باب سيده أحسنت في رجوعك و سيدك رحيم ، أي لا يعاقبك علي ما تقدم من ذنبك بسبب ما أثبت به من الحسنه^(١).

فالآية تفتح باب الإنابة و التوبة ، ومعناها : " أن الله بليغ المغفرة والرحمة فلم تضق ساحة مغفرته ورحمته -ﷺ- عن هؤلاء إن تابوا و أصلحوا"^(٢). يقول الدكتور عبد الكريم الخطيب: " في قوله : "والله غفور رحيم " تطمين لهؤلاء الأعراب الذين قد يقع منهم هذا الفعل ، وأنهم في سعة من رحمته الله و مغفرته ، إذ هم اخذوا بأداب القرآن ، ونزعوا عما غلبت عليه طبيعتهم .. كما أنه دعوة إلي النبي الكريم ، أن يغفر و يرحم ، فقد غفر الله ورحم"^(٣).

وخلاصة القول : إن القرآن الكريم يعلمنا الأخلاق السامية ، والآداب الرفيعة ، ويهذب الطباع ، فيدعوا إلي الصبر، وعدم الاستعجال في فعل أي أمر من الأمور ، فهذا الأدب المختص به النبي -ﷺ- يقاس عليه أدب التعامل مع الأستاذ ، فان المتعلم ينبغي عليه أيضا الصبر علي معلمه ، فلا يطلبه في وقت انشغاله. فلقد حكى عن ابن عباس انه كان يذهب إلى أبي بن كعب في بيته لأخذ القرآن العظيم عنه فيقف عند الباب ولا يدق الباب عليه حتي يخرج ، فاستعظم ذلك "أبي" منه ، فقال له يوما : هلا دقت الباب يا ابن عباس؟ فقال: العالم في قومه كالنبي في أمته وقد قال الله تعالى في حق نبيه -ﷺ-: "ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفور رحيم"^(٤). قال سيد قطب: "وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع ، وتجاوزوا به شخص رسول -ﷺ- إلى كل أستاذ وعالم ، لا يزعمونه حتى يخرج إليهم ، ولا يقتحمون عليه حتى يدعوه"^(٥).

من الأمور التي يجب فيها أيضا الصبر وعدم التعجل الصبر عند تأخير إجابة الدعاء : الدعاء كما قال عنه رسول الله -ﷺ- مخ العبادة ، فلقد روى عن أنس بن مالك عن النبي -ﷺ- قال : "الدعاء مخ العبادة"^(٦). وفي رواية "الدعاء هو العبادة ، ثم قرأ:"وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون

(١) مفاتيح الغيب للرازي المجلد الرابع عشر ٢٨ / ١٠١ ، ١٠٢.

(٢) روح المعاني ٢٦ / ١٤٣ ، ١٤٤ بتصرف .

(٣) التفسير القرآني للقرآن المجلد السابع ٢٦ / ٤٣٨ .

(٤) روح المعاني ٢٦ / ١٤٤ بتصرف.

(٥) في ظلال القرآن لسيد قطب المجلد السادس ٢٦ / ٣٣٤٠ .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات ، باب ما جاء في فضل الدعاء ٥ / ٤٥٦ ، رقم الحديث (٣٣٧١) ، وقال

أبو عيسى : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث بن لهيعة.

عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين" (١). "فالدعاء هو العبادة الحقيقية التي تستأهل أن تسمى عبادة ؛ لدلالته على الإقبال على الله ، والإعراض عما سواه ، بحيث لا يرجو ولا يخاف إلا إياه ، قائما بوجوب العبودية ، معترفا بحق الربوبية ، عالما بنعمة الإيجاد ، طالبا لمداد الإمداد ، على وفق المراد وتوفيق الإيساعاد" (٢). أيضا "لما في الدعاء من الإخلاص والخضوع والضراعة وذلك صريح الإيمان" (٣). كما أن الداعي "إنما يدعو الله عند انقطاع أمله مما سواه ، وذلك حقيقة التوحيد والإخلاص ولا عبادة فوقهما" (٤). وفيه "إظهار الافتقار والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمت العبادة ، واستشعار ذلة البشرية ، ومتضمن للثناء على الله وإضافة الكرم والجود إليه" (٥).

كان هذا هو سر التعبير النبوي بأن الدعاء هو مخ العبادة بل هو العبادة نفسها ، وغير ذلك الكثير ؛ لذا رغب المولى -ﷺ- في الدعاء والافتقار إليه فقال عز من قائل: "ادعوني أستجب لكم" (٦). استجب لكم تفضلا ونعمة ووعدا لأمة حبيبي المصطفى -ﷺ- بالإجابة عند الدعاء.

روى عن النبي -ﷺ- فيما يرويه عن رب العزه قال : "أربع خصال واحدة منهن لى وواحدة لك ، وواحدة فيما بيني وبينك ، وواحدة فيما بينك وبين عبادي ؛ فأما التى لى فتعبدني لا تشرك بى شيئا ، وأما التى لك على فما عملت من خير جزيتك به ، وأما التى بيني وبينك فمك الدعاء وعلى الإجابة ، وأما التى بينك وبين عبادي فارض لهم ما ترضى لنفسك" (٧).

وفى رواية : " أعطيت هذه الأمة ثلاثا لم تعطهن أمة قبلها ولا نبى : كان إذا أرسل الله نبيا قال له : أنت شاهد على أمتك ، وقال لهذه الأمة " وجعلكم شهداء على الناس ". وكان يقول له " ليس عليك فى الدين من حرج " . وقال لهذه الأمة : " وما جعل عليكم فى الدين من حرج " . وكان يقال له : ادعني أستجب لك . وقال لهذه الأمة " ادعوني أستجب لكم" (٨). وهذا فضل اختص الله به أمة سيد ولد آدم أجمعين على سائر الأمم . والله -ﷻ- قريب من عباده فهو أقرب إليهم من حبل الوريد ؛ لذلك لم يجعل واسطة بينه وبين عباده عند الدعاء بل قال -ﷻ- : " وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا

(١) أخرجه الترمذي فى سننه ، كتاب تفسير القرآن عن رسول الله -ﷺ- باب ومن سورة المؤمن ٥٠ / ٣٧٥ ، رقم الحديث (٣٢٤٧) . وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) عون المعبود شرح سنن أبو داود ٤ / ١٤٧ ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤١٥ هـ ، الطبعة الثانية ، نقلا عن أبى الطيب .

(٣) شرح الزرقانى ٢ / ١١٢ بتصرف .

(٤) تحفة الأحوذى ٩ / ٣١١ .

(٥) فيض القدير للمناوى ٣ / ٥٤٠ .

(٦) سورة غافر ، من الآية : ٦٠ .

(٧) مسند أبو يعلى لأحمد بن على بن المثنى أبو يعلى الموصلى التميمى ٥ / ١٤٣ ، دار المأمون للتراث ، دمشق ١٤٠٤ هـ ، ١٩٨٤ م ، الطبعة الأولى ، تحقيق / حسين سليم أسد ، وانظر تفسير القرآن العظيم ٤ / ٨٦ عن أنس بن مالك .

(٨) تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ٤ / ٨٦ ، عن قتادة عن كعب الأحرار .

دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون^(١). فقله " قريب " تمثيل لحاله في سهولة إجابته لمن دعاه ، وسرعة إنجابه حاجة من سألته ، بحال من قرب وكأنه إذا دعى أسرع تلبية^(٢).

يذكر الإمام السعدي في هذا الشأن ما نصه : "الدعاء نوعان : دعاء عبادة ، ودعاء مسألة . ، والقرب نوعان : قرب بعلمه من كل خلقه ، وقرب من عابديه وداعيه بالإجابة والمعونة والتوفيق ، فمن دعا بقلب حاضر ودعاء مشروع ولم يمنع مانع من إجابة الدعاء كأكل حرام ونحوه ؛ فإن الله قد وعده بالإجابة خصوصا إذا أتى بأسباب إجابة الدعاء ؛ وهي الاستجابة لله تعالى بالانقياد لأوامره ونواهيته القولية والفعلية ، والإيمان به الموجب للاستجابة ولهذا قال : " فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلمهم يرشدون ". أى يحصل لهم الرشد الذى هو الهداية للإيمان والأعمال الصالحة ويزول عنهم الغي المنافي للإيمان والأعمال الصالحة"^(٣).

فطاعة الله والاستجابة له والإيمان بربوبيته وألوهيته هما عين إجابة الدعاء . لذا قيل : " إجابة الدعاء تكون عن صحة الاعتقاد وعن كمال الطاعة"^(٤). فإذا استجاب الداع لدعاء الله ، وآمن به ربا ، وحسن ظنه به ، يجب عليه أن يراعى آدابا للدعاء إلى الله - ﷻ - من هذه الآداب : الخضوع والتضرع إليه وخفض الصوت عند دعائه وعدم الاعتداء عليه بالدعاء ، قال ﷻ : " ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين"^(٥). أى "أدعو مولاكم فى تذلل وخشوع متعبدين له مستكينين ، خاشعة جوارحكم له ، راجين ثوابه ، خائفين من عقابه ، متأدبين فى استغاثتكم ، خافضين أصواتكم ؛ لذا نهى رسول الله أصحابه برفع أصواتهم عند الدعاء بقوله : "أربعوا"^(٦) على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنكم تدعون سمعيا قريبا"^(٧). والمعنى كما قال الإمام النووي : " ارفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه لسمعته ، وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب بل هو سميع

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٨٦ .

(٢) الكشف ١ / ٢٥٥ ، ط ، دار إحياء التراث ، بيروت .

(٣) تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان لـ السعدي ص ٨٧ .

(٤) كتب ورسائل ابن تيمية فى التفسير لـ أحمد عبد الحليم بن تيمية الحرانى أبو العباس ١٤ / ٣٣ ، مكتبة ابن تيمية الثانية ، تحقيق/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمى النجدى .

(٥) سورة الأعراف ، الآية : ٥٥ .

(٦) أرفقوا (غريب الحديث لابن الجوزى ١ / ٣٧٥ ، الطبعة الأولى ، ط ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٥ هـ ، ١٩٨٥ م ، تحقيق د/ عبد المعطى أمين قلجعى .

(٧) الحديث أخرجه الإمام البخاري مطولا ، كتاب المغازى ، باب غزوة خيبر ٣ / ١٢٧٩ ، رقم الحديث ٤٢٠٥ ، عن أبى موسى الأشعري وقد اقتصر فيه على محل الشاهد . كما أخرجه أيضا فى كتاب الجهاد والسير ، باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ٢ / ٩٢٠ ، رقم الحديث (٢٩٩٢) ، كما أخرجه مسلم فى صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب استحباب خفض الصوت بالذكر ٤ / ٢٠٧٦ ، رقم الحديث (٢٧٠٤) .

قريب ، وهو معكم بالعلم والإحاطة ، ففيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر ، إذا لم تدع الحاجة إلى رفعه ، فإنه إذا خفضه كان أبلغ في توقيره وتعظيمه فإن دعت الحاجة إلى الرفع رفع^(١).

فإذا تضرع الداعي إلى الله عليه ألا يعتدي عليه بالدعاء "والاعتداء في الدعاء على وجوه منها : الجهر الكثير والصياح ، ومنها: أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي ، أو يدعو في محال أو نحو هذا من الشطط ، ومنها: أن يدعو طالبا معصية وغير ذلك ، ومنها: أن يدعو بما ليس في الكتاب والسنة فيتخير ألفاظا مفقرة وكلمات مسجعة قد وجدها في كراريس لا أصل لها ، ولا شعار عليها فيجعلها شعاره ، ويترك ما دعا به رسوله -ﷺ- وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء"^(٢). قال ابن تيمية^(٣) -رحمه الله- : "وأي اعتداء أعظم وأشنع من أن يسأل العبد ربه أن لا يفعل ما قد أخبر أنه لا بد أن يفعله أو أن يفعل ما قد أخبر أنه لا يفعله"^(٤).

وإذا راعى الداعي هذه الآداب في الدعاء من التضرع والخشوع وانخفاض الصوت وعدم الاعتداء ، أجاب الله دعوته إن شاء -ﷻ- ، أما إذا تأخرت الإجابة فلا ينبغي الجزع والاستعجال ، بل الواجب التأنى والصبر ، ولقد عقد أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي في كتابه -صيد الخاطر- فصلا بعنوان " لا تجزع إذا تأخرت إجابة الدعاء" قال فيه : "رأيت من البلاء أن المؤمن يدعو فلا يجاب له ، فيكرر الدعاء وتطول المدة ولا يرى أثرا للإجابة ، فينبغي له أن يعلم أن هذا من البلاء الذي يحتاج إلى الصبر ، وما يعرض للنفس من الوسواس في تأخير الجواب مرض يحتاج إلى طب ، ولقد عرض لى من هذا الجنس ، فإنه نزلت بى نازلة ، فدعوت وبالغت ، فلم أر الإجابة ، فأخذ إبليس يجول في حلمات كيده ، فتارة يقول : الكرم واسع والبخل معدوم ، فما فائدة تأخير الجواب ؟ فقلت له: اخسأ يا لعين ، فما أحتاج إلى تقاضى ولا أرضاك وكيلا ، ثم عدت إلى نفسي فقلت : إياك ومساكنة وسوسته ، فإنه لو لم يكن فى تأخير الإجابة إلا أن يبيلوك المقدر فى محاربة العدو لكفى فى الحكمة"^(٥).

ولكن لم تأخير الإجابة وقد راعى الداعي آداب وحدود الدعاء؟ والجواب : أن هناك أمورا يجب مراعاتها عند تأخير الإجابة حتى لا يكون اليأس والجزع ، وحتى لا ندع للشيطان فرصة لمكائده ووسوسته ، وهذه الأمور هى :-

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٢٦ .

(٢) تفسير القرطبي المجلد الرابع ٧ / ١٤٤ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .

(٣) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم ، شيخ الإسلام ، ولد فى حران وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر ، من تصانيفه الفتاوى والجمع بين النقل والعقل ، توفي سنة ٧٢٨ هـ - ١٣٢٨ م . (الأعلام ١ / ١٤٤ التاسعة).

(٤) كتب ورسائل ابن تيمية فى التفسير ١٤ / ٣٦٧ .

(٥) صيد الخاطر لشيخ العراق أبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزي ص ٦٧ ، تحقيق / عبد القادر احمد عطا ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

الأول : أنه قد ثبت بالبرهان أن الله -عز وجل- مالك ، وللمالك التصرف بالمنع والعطاء ، فلا وجه للاعتراض عليه^(١).

الثاني : أنه قد ثبتت حكمته بالأدلة القاطعة ، فربما رأيت الشيء مصلحة ، والحكمة لا تقتضيه ، وقد يخفى وجه الحكمة فيما يفعله الطبيب من أشياء تؤذى في الظاهر يقصد بها المصلحة ، ففعل هذا من ذاك^(٢) ولذلك نبه المولى عباده أن الحكمة والمصلحة فيما يختاره ، فلا يكرهوا شيئاً قد يكون خيراً لهم ، ولا يحبوا شيئاً قد يكون شراً لهم ، فقال: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون"^(٣).

فهذه الآية وردت في معرض تشريع القتال وكرهية المسلمين له ، فيخبرهم المولى أنه أعلم بمصالح عباده ، فقد يكون في القتال خير ، قال ابن كثير: "لأنه يعقبه النصر والظفر على الأعداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم ، أما القعود عن القتال فيعقبه استيلاء العدو على البلاد والحكم ، ثم قال تعالى: "والله يعلم وأنتم لا تعلمون" أي "هو أعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم في دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلكم ترشدون"^(٤). ولذلك قال الحسن : " لا تكرهوا الملمات الواقعة قرب أمر تكرهه فيه نجاتك ، ولرب أمر تحبه فيه عطبك"^(٥). وأنشد آخر:

"رب أمر تتقيهِ جر أمرا ترتضيه
خفي المحبوب منه وبدا المكروه فيه"^(٦)

الثالث : "أن يكون التأخير مصلحة والاستعجال مضرة"^(٧) قال -عز وجل-: "يستجاب لأحدكم ما لم يعجل يقول: دعوت فلم يستجب لي"^(٨).

(١) صيد الخاطر ص ٦٧

(٢) صيد الخاطر ص ٦٧ .

(٣) سورة البقرة ، من الآية: ٢١٦ .

(٤) تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ١ / ٢٥٣ .

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثاني ٣ / ٢٨ ، دار الكتب العلمية ١٤٠٨ هـ ، ١٩٨٨ م .

(٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثاني ٣ / ٢٨ عن أبي سعيد الضرير .

(٧) صيد الخاطر ص ٦٨ .

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الدعوات وقول الله تعالى : " أدعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين " . ، باب : " يستجاب للعبد ما لم يعجل " ٤ / ١٩٩٤ ، رقم الحديث (٦٣٤٠) ، من حديث أبي هريرة . كما أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب : " بيان أنه يستجاب للداعي ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي " ٤ / ٢٠٩٥ .

وورد في صحيح مسلم رواية أخرى أنه -ﷺ- قال: "لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم - ما لم يستعجل" قيل: يا رسول الله! ما الاستعجال؟ قال: "يقول: قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء"^(١).

قال الإمام النووي: "قال أهل اللغة: يقال حسر واستحسر إذا أعيا وانقطع عن الشيء والمراد هنا: أنه ينقطع عن الدعاء وفيه قوله تعالى "لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون"^(٢) أى لا ينقطعون عنها، ففيه أنه ينبغي إدامة الدعاء ولا يستبطن الإجابة"^(٣).

قال ابن القيم الجوزي: "من الآفات التي تمنع ترتيب أثر الدعاء عليه أن يستعجل العبد ويستبطن الإجابة فيستحسر ويدع الدعاء وهو بمنزلة من بذر بذرا أو غرس غرسا، فجعل يتعهده ويسقيه فلما استبطن كماله وإدراكه أهمله"^(٤). وقال الإمام الزرقاني: "من له ملالة من الدعاء لا يقبل دعاؤه؛ لأن الدعاء عبادة، حصلت الإجابة أو لم تحصل، فلا ينبغي للمؤمن أن يمل من العبادة، وتأخير الإجابة إما لأنه لم يأت وقتها، وإما لأنه لم يقدر في الأزل قبول دعائه في الدنيا، ليعطى عوضه في الآخرة، وإما أن يؤخر القبول ليلج ويبالغ في ذلك فإن الله يحب الملحين في الدعاء مع ما في ذلك من الانقياد والاستسلام وإظهار الافتقار، ومن يكثر قرع الباب يوشك أن يفتح له ومن يكثر الدعاء يوشك أن يستجاب له"^(٥).

فينبغي على الداع الصبر عند تأخير الإجابة؛ لأن اختيار الله له خير من اختياره لنفسه، فالإنسان من طبيعة خلقته أنه عجول يغتر بظواهر الأمور ولا ينظر في عواقبها. قال تعالى: "ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا"^(٦). قال الإمام الرازي: "إن الإنسان قد يبالغ في الدعاء طلبا لشيء يعتقد أن خيره فيه مع أن ذلك الشيء يكون منبع شره وضرره، وهو يبالغ في طلبه لجهله بحال ذلك الشيء، وإنما يقدم على مثل ذلك العمل لكونه عجولا مغترا بظواهر الأمور غير متفحص عن حقائقها وأسرارها"^(٧).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: "بيان أنه يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم" دعوت فلم يستجب لي " ٤ / ٢٠٩٥، رقم الحديث (٩٢)، عن أبي هريرة.

(٢) سورة الأنبياء، من الآية: ١٩.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ٥٢.

(٤) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي للعلامة الحافظ ابن الجوزية المتوفى سنة ٧٥١هـ (٣٠) ضبط وعلق عليه وقدم له د / السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م.

(٥) شرح الزرقاني ٢ / ٤٨ عن المظهري.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ١١.

(٧) مفاتيح الغيب، المجلد العاشر ٢٠ / ١٣٠.

ويستفاد من هذا القول أن الإنسان قد يدعو ربه ويلج في طلب الشيء وهو في الواقع شر وفي ظنه خير فيدعو ربه به كما يدعو بالخير ، وهذا إنما نشأ من عدم التأني والتدبر والتفكر في حقائق الأشياء. قال الإمام القشيري: "من الأدب في الدعاء أن لا يسأل العبد إلا عند الحاجة ثم ينظر فإن كان شيء لا يعنيه ألا يتعرض له فإن في الخبر: "من حسن إسلام المرء ترك ما لا يعنيه"^(١) ثم من آداب الداع إذا سأل من الله حاجته ورأى تأخيراً في الإجابة ألا يتهم الحق سبحانه - ويجب أن يعلم أن الخير في ألا يجيبه ، والاستعجال فيما يختاره العبد غير محمود ، وأولى الأشياء السكون والرضا بحكمه سبحانه ، فإن لم يساعده الصبر وسأل ، فالواجب ترك الاستعجال والثقة بأن المقسوم لا يفوت ، وأن اختيار الحق للعبد خير له من اختياره لنفسه"^(٢).

كما أن الإنسان قد يدعو على نفسه أو ماله أو أهله أو ولده فلو استجاب الله دعاءه لهلك فكان المنع أصلح له. فلقد روى أن رسول الله - ﷺ قال: "لا تدعوا على أنفسكم ، ولا تدعوا على أولادكم ، ولا تدعوا على أموالكم ، لا توافقوا من الله ساعة يسأل فيها عطاء فيستجيب لكم"^(٣). كما روى عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ عاد رجلاً من المسلمين قد خفت مثل الفرخ^(٤) فقال له رسول الله - ﷺ: "هل كنت تدعو بشيء أو تسأله إياه؟ قال: نعم ، كنت أقول : اللهم ما كنت معاقبي بي في الآخرة فعجله لي في الدنيا ، فقال رسول الله - ﷺ: "سبحان الله! لا تطيقه أو لا تستطيعه ، أفلا قلت؟ " اللهم أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار"^(٥) قال: "فدعا الله له فشفاه"^(٦) قال النووي - رحمه الله -:

(١) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الزهد ، ٥٥٨ / ٤ ، وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه من حديث أبي سلمه عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - إلا من هذا الوجه ، كما أخرجه ابن ماجه في سننه ، كتاب الفتن ، باب كف اللسان في الفتن ١٣١٥ / ٢ ، رقم الحديث (٣٩٧٦) ، عن أبي هريرة أيضاً ، دار الفكر ، بيروت ، تحقيق / محمد فؤاد عبد الباقي ، كما أخرجه مالك في موطأه ، كتاب الجامع باب " ما جاء في حسن الخلق " ص ٦٥٠ ، رقم الحديث (١٦٢٩) ، عن علي بن أبي طالب ، الطبعة السادسة ١٤٠٢ هـ ، ١٩٨٢ م .

(٢) لطائف الإشارات للقشيري ٢ / ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٣) أخرجه مسلم مطولاً ، كتاب الزهد والرقائق ، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر ٢٣٠٤ / ٤ ، رقم الحديث (٣٠٠٦) عن جابر وقد اقتصر فيه على محل الشاهد .

(٤) أي ضعف ، (صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ١٣) .

(٥) فيه فضل الدعاء " باللهم أتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار ، وأظهر الأقوال في تفسير الحسنة في الدنيا أنها العافية ، وفي الآخرة الجنة والمغفرة ، وقيل : الحسنة نعم الدنيا والآخرة . (صحيح مسلم ١٧ بشرح النووي ١٧ / ١٣ ، ١٤) .

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب كراهية الدعاء في الدنيا ٢٠٦٨ / ٤ ، رقم الحديث (٢٦٨٨) .

"في هذا الحديث النهى عن الدعاء بتعجيل العقوبة ، وفيه كراهة تمنى البلاء ؛ لئلا يتضرر منه ويسخطه وربما شكاً" (١).

الأمر الرابع: "أن يكون امتناع الإجابة لآفة فيك فربما يكون في مأكلك شبهة" (٢). فقد روى عن أبي هريرة -رضي الله عنه-: قال: قال رسول الله -ﷺ-: "إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: "يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم" . وقال: "يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون". ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب! (٣) أو مطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب له؟" (٤). قال الإمام النووي : "فيه الحث على الإنفاق من الحلال والنهي عن الإنفاق من غيره ، وفيه أن المشروب والمأكول والملبوس ونحو ذلك ينبغي أن يكون حلالاً خالصاً لا شبهة فيه ، وأن من أراد الدعاء كان أولى بالإعتناء بذلك من غيره" (٥). فيجب على الإنسان أن ينظر في مطعمه وملبسه ومشربه من أين اكتسبها أمن حلال أم من حرام قبل أن يتعجل على الله في قبول الإجابة وقبل أن يسأل الله لم أخرت إجابتي!!

الأمر الخامس: أن الداعي قد يدعو مولاه وقلبه غافل وغير متيقن من إجابة الله -ﷻ- لدعوته ، فقد روى أن رسول الله -ﷺ- قال: "ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، وأعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه" (٦). وروى أيضاً أن رسول الله -ﷺ- : " قال القلوب أوعى ، وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتهم الله -ﷻ- أيها الناس ، فاسألوه وأنتم موقنون بالإجابة ، فإن الله لا يستجيب لعبد دعاء عن ظهر قلب غافل" (٧).

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ١٧ / ١٣ .

(٢) صيد الخاطر، ص ٦٨ .

(٣) معناه والله أعلم أنه يطيل السفر في وجوه الطاعات كحج وزيارة مستحبة وصلة رحم وغير ذلك . (صحيح مسلم بشرح النووي ٧ / ١٠٠) .

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة ، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها ٢ / ٧٠٣ ، رقم الحديث (١٠١٥) عن أبي هريرة .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ٧ / ١٠٠ .

(٦) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات ، باب (٦٦) ٥ / ٥١٧ . وقال الترمذي : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ، والحديث مروى عن أبي هريرة ، رقم الحديث (٣٤٧٩) .

(٧) أخرجه أحمد في مسنده ، ٢ / ١٧٧ ، عن عبد الله بن عمرو . وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ، كتاب الأدعية باب أدعو الله وأنتم موقنون بالإجابة ، ١٠ / ٤٨ وقال الهيثمي : " رواه أحمد وإسناده حسن . وذكره المنذرى في الترغيب والترهيب " الترهب من رفع المصلى رأسه إلى السماء وقت الدعاء وإن يدعو الإنسان وهو غافل " ٢ / ٣٢٢ ، وقال : إسناده حسن .

والمعنى: "كونوا عند الدعاء على حالة تستحقون بها الإجابة من إتيان المعروف واجتناب المنكر ورعاية شروط الدعاء كحضور القلب ، وترصد الأزمنة الشريفة والأمكنة المنيفة ، واغتنام الأحوال اللطيفة كالسجود ، ذلك حتى تكون الإجابة على قلوبكم أغلب من الرد ، أو أراد وأنتم معتقدون أن الله لا يخيبكم لسعة كرمه ، وكمال قدرته ، وإحاطة علمه بتحقيق صدق الرجاء ، وخلوص الدعاء ؛ لأن الداعي ما لم يكن رجاءه وثاقا لم يكن دعاؤه صادقا" ^(١) وقال الإمام المناوي : " كونوا على حال تستحقون فيه الإجابة بخلوص النية وحضور الجنان ، وفعل الطاعات بالأركان ، وتجنب المحظور والبهتان ، وتفريغ السر عما سوى الرحمن ، أما سمعته يقول " وجاء بقلب منيب " ؟ أى راجع إليه عما سواه ، مع إظهار الانكسار والاضطرار ، ورفض الحول والقوة ، وغلبة ظن الإجابة بحيث تكون أغلب على القلب من الرد ، لأن الداعي إذا لم يكن جازما لم يكن رجاءه صادقا ، وإذا لم يصدق الرجاء لم يخلص الدعاء ، إذ الرجاء هو الباعث على الطلب ولا يتحقق الفرع بدون تحقق الأصل ، ولأن الداعي إذا لم يدع ربه على يقين أنه يجيبه فعدم إجابته إما لعجز المدعو أو بخله أو عدم علمه بالابتهال وذلك كله على الحق -تقدس- محال" ^(٢).

فيجب على الداع أن يكون على حال يستحق فيها قبول دعائه . فلقد روى عن فضالة بن عبيد قال : بينا رسول الله -ﷺ- قاعد إذ دخل رجل فصلي ، فقال : اللهم اغفر لي وارحمني ، فقال رسول الله -ﷺ- : "عجلت أيها المصلي ، ، إذا صليت ففعدت فاحمد الله بما هو أهله وصل على ثم ادعه " قال : ثم صلى رجل آخر بعد ذلك ، فحمد الله وصلى على النبي -ﷺ- فقال له النبي -ﷺ- : "أيها المصلي ادع تجب" ^(٣).

الأمر السادس : أن المولى -ﷺ- قد وعد عباده بإجابة دعوتهم ، فإما أن يعجلها له في الدنيا أو يدخرها في الآخرة ، فلقد روى ، أن النبي -ﷺ- قال : " ما من عبد ينصب وجهه إلى الله -ﷻ- في مسألة إلا أعطاه الله إياها ، إما أن يعجلها وإما أن يدخرها" ^(٤). فانظر ما تختار لنفسك واعلم أن الباقي خير من الفان وأن الآخرة خير وأبقى ، ويوم القيامة إذا رأى العبد الداع أن ما أجيب فيه قد ذهب ، وما لم يجب فيه قد

(١) تحفة الأحوذى ٩ / ٤٥٠ .

(٢) فيض القدير ١ / ٢٢٨ .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه واللفظ له ، كتاب الدعوات عن رسول الله -ﷺ- ، ٥ / ٥١٦ رقم الحديث (٣٤٧٦) ، وقال أبو عيسى : حديث حسن رواه حيوة بن شريح عن أبي هانئ ، وأبو هانئ اسمه / حميد بن هانئ ، وأبو على الجبني اسمه / عمرو بن مالك . كما أخرجه النسائي في سننه الكبرى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندی ، كتاب السهو ، باب " التمجيد والصلاة على النبي -ﷺ- في الصلاة " ، المجلد الثاني ٣ / ٤٤ ، ٤٥ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

(٤) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ، كتاب الأدعية ، باب " قبول دعاء المسلم " ١٠ / ١٤٨ ، وأخرجه / احمد في مسنده ٢ / ٤٤٨ ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان باب " في الرجاء من الله " ، ذكر فصول في الدعاء بلفظ ما من مؤمن ينصب وجهه لله يسأل مسألة إلا أعطاه إياه : إما عجلها له في الدنيا وإما أخرها له في الآخرة ما لم يعجل . يقول : " قد دعوت ودعوت فلا أراه يستجاب " ٢ / ٤٧ .

بقي قال: ليت ربي لم يجب دعوتي قط ، فلقد روى عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- عن النبي -ﷺ- قال : " يدعو الله بالمؤمن يوم القيامة حتى يوقفه بين يديه ، فيقول : "عبدني إني أمرتك أن تدعوني ، ووعدتك أن أستجيب لك ، فهل كنت تدعوني؟ فيقول : نعم يارب ! فيقول : أما إنك لم تدعني بدعوة إلا استجبت لك ، فهل ليس دعوتي يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك ففرجت عنك؟ فيقول : نعم يارب ، فيقول : "فإني عجلتها لك في الدنيا ، ودعوتي يوم كذا وكذا لغم نزل بك أن أفرج عنك فلم تر فرجا ؟" قال: نعم يارب ! فيقول : "إني ادخرت لك بها في الجنة كذا وكذا " ، قال رسول الله -ﷺ- : " فلا يدع الله دعوة دعا بها عبده المؤمن إلا بين له إما أن يكون عجل له في الدنيا ، وأما أن يكون ادخر له في الآخرة " ، وقال : "فيقول المؤمن في ذلك المقام يا ليتني لم يكن عجل له في شيء من دعائه" ^(١) . فعلى المسلم أن يفهم هذه الأشياء وينتدبرها من قبل أن يختلج قلبه ريب أو استعجال.

الأمر السابع : أن قضاء الله -ﷻ- لا يرد فربما وافقت الدعوة قضاء الله فتجاب ، وربما لا توافقه فتمتنع ، وها هو أفضل الخلق على الإطلاق سيدنا محمد -ﷺ- سأل الله -ﷻ- ألا يجعل بأس أمته بينهم فمنعها إذ كان القدر قد سبق بغير ذلك ^(٢) . فلقد روى عن عامر بن سعد عن أبيه : أن رسول الله -ﷺ- أقبل ذات يوم من العالية حتى إذا مر بمسجد بنى معاوية دخل فركع فيه ركعتين ، وصلينا معه ودعا ربه طويلا ، ثم انصرف إلينا ، فقال -ﷺ- : " سألت ربي ثلاثا فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة ^(٣) فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ^(٤) فمنعنيها" ^(٥) .

قال أحد العلماء: "اعلم أن الله تعالى في خلقه قضائين ، مبرما ومعلقا بفعل ، كما قال إن فعل الشيء الفلاني كان كذا وكذا ، وإن لم يفعله فلا يكون كذا وكذا ، وهذا من قبيل ما يتطرق إليه المحو والإثبات ، كما قال تعالى : في محكم كتابه: "يمحو الله ما يشاء ويثبت" ^(٦) وأما القضاء المبرم فهو عبارة عما قدره سبحانه في الأزل أن يعلقه بفعل فهو في الوقوع نافذ غاية النفاذ بحيث لا يتغير بحال ولا يتوقف على

(١) ذكره البيهقي في شعب الإيمان، باب " في الرجاء من الله " ، ذكر فصول في الدعاء ، ٢ / ٤٩ .

(٢) المحرر الوجيز ١ / ٢٥٥ بتصرف .

(٣) أي بالمحل والجذب والجوع (شرح الزرقاني ٢ / ٥٨) .

(٤) أي الحرب والفتن والاختلاف (شرح الزرقاني ٢ / ٥٨) .

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب " هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض " ٤ / ٢٢١٦ ، رقم الحديث (٢٨٩٠) .

(٦) سورة الرعد ، من الآية: ٣٩ .

المقضي عليه ولا المقضي له ؛ لأنه من علمه بما كان وما يكون ، وهذا من قبيل ما لا يتطرق إليه المحو والإثبات ، قال تعالى : " لا معقب لحكمه " (١) (٢) .

الأمر الثامن : أنه ربما أخر الله إجابتك ليكون ذلك سببا للوقوف على بابه واللجوء إليه ، فالمولى -ﷺ- يحب الملحين في الدعاء ، وإذا أحب الله عبدا أحب سماع صوته ، فلقد حكى عن أحد العابدين أنه رأى ربه -ﷺ- في المنام ، فقال : يارب ، كم أدعوك ولا تجيبني؟ فقال : "إني أحب أن أسمع صوتك" (٣) . هذه هي الأمور التي يجب مراعاتها عند تأخير الإجابة ، حتى لا ييأس الداع ولا يجزع . ولتعلم تمام العلم أن "تدبير الحق -ﷺ- لك خير من تدبيرك ، وقد يمنعك ما تهوى ابتلاء ليلو صبرك ، فأره الصبر الجميل تر عن قرب ما يسر ، ومتى نظفت طرق الإجابة من أدران الذنوب وصبرت على ما يقضيه لك ، فكل ما يجرى أصلح لك ، عطاء كان أو منعا" (٤) .

(١) سورة الرعد ، من الآية : ٤١ .

(٢) تحفة الأحوذى ٦ / ٣٣٣ .

(٣) صيد الخاطر ص ٦٩ .

(٤) صيد الخاطر ص ٢٢٧ .

البحث الثالث

دعوة القرآن والسنة إلي الحلم

لقد حث القرآن الكريم علي التحلي بخلق الحلم ، كما بين النبي -ﷺ- منزلة الحلم ، وما له من عظيم الأجر في الدنيا ، وكثير الثواب في الآخرة ، وليس هذا بعجيب ولا غريب ، فإن الحلم "هو سيد الفضائل ، ومنبع الخيرات ، ومصدر السكينة والهدوء ، فالحلم من أشرف الأخلاق ، وأحقها بذوي العقول الناضجة ، فلا توجد نتيجة حسنة ، ولا غاية حميدة ، ولا نهاية سعيدة ، إلا كان الحلم سبيلها ، والموصل إليها ، لأنه يقتلع الشر من جنوره ، ويطفىئ النار في أول بدورها ، ويقضي علي كل فتنة في مهدها ، ويرغم الشيطان أن يكون من المدحورين المذمومين"^(١).

هذا الخلق الحميد الذي يتحلى به بعض الناس ، بل القليل منهم ، فالناس كما يقول الشيخ محمد الغزالي : "تفاوت درجاتهم في الثبات أمام المثيرات ، فمنهم من تستخفه التوافه فيستحمق علي عجل ، ومنهم من يستفزه الشدائد فيبقي علي وقعها الأليم محتفظا برجاحة فكره وسجاجة"^(٢) خلقه ، ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دخلا كبيرا في أنصبه الناس من الحدة والهدوء ، والعجلة والأناة ، والكدر والنقاء ، إلا أن هناك ارتباطا مؤكدا بين ثقة المرء بنفسه وبين أناته مع الآخرين ، وتجاوزه عن خطئهم ، فالرجل العظيم حقا كلما خلق في آفاق الكمال اتسع صدره ، وامتد حلمه ، وعذر الناس من أنفسهم ، والتمس المبررات لأغلاطهم فإذا عدا عليه غر يريد تجريحه ، نظر إليه من قمته كما ينظر الفيلسوف إلي صبيان يعبثون في الطريق وقد يرمونه بالأحجار"^(٣).

وقبل الحديث عن دعوة القرآن والسنة لهذا الخلق الحميد ، يجدر بنا التعريف بهذه الصلة الشريفة ، فالحلم لغة: مصدر حلم فلان أي صار حلما ، وهو مأخوذ من مادة "ح-ل-م" التي تدل علي ترك العجلة^(٤) فالحلم خلاف الطيش ، يقال : حلمت عنه أحلم ، فأنا حلیم^(٥) قال ابن منظور: الحلم بالكسر : الأناة والعقل ، وجمعه أحلام وحلوم وفي التنزيل العزيز " أم تأمرهم أحلامهم بهذا"^(٦). وهو

(١) مقدمة كتاب "الحلم" للحافظ ابن أبي الدنيا ، ص ٦ ، تحقيق وتعليق مجدي السيد إبراهيم ، مكتبة القرآن للطبع والنشر والتوزيع.

(٢) يقال : يخلق سجيح أي لين سهل ، راجع لسان العرب ، لابن منظور ، ١٩٣٩/٣ ، مادة سجع باب السين .

(٣) خلق المسلم لمحمد الغزالي ، ص ١٠٨ ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م ، دار الريان للتراث القاهرة.

(٤) لهذه المادة في اللغة معنيان آخران هما : تتقب الشيء ورؤية الشيء في المنام راجع هذين المعنيين ، وأمثلتها في معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ٩٣/٢ ، باب الحاء واللام وما يتلثهما ، كتاب الحاء .

(٥) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ، ٩٣/٢ ، بتصرف.

(٦) سورة الطور ، من الآية: ٣٢.

أيضاً نقيض السفة ، والحليم في صفة الله -ﷻ- معناه الصبور ، وقيل : هو الذي لا يستخفه عصيان العصاة ، ولا يستفزه الغضب عليهم ، ولكنه جعل لكل شيء مقدارا فهو منته إليه^(١).

أما اصطلاحاً: فالعلماء في تعريفه أقوال منها: هو الطمأنينة عند ثورة الغضب^(٢) وقيل "تأخير مكافأة الظالم"^(٣) وقيل "هو احتمال الأعلي الأذي من الأدنى ، وهو رفع المؤاخذه عن مستحقها بجناية في حق مستعظم"^(٤) وقيل : "ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب"^(٥).

ومن خلال هذه المعان اللغوية والاصطلاحية لمادة "حلم" تبين أن هذه المادة تدور حول معان اللين ، الرفق ، العفو ، الصفح ، التآني ، كظم الغيظ ، ضبط النفس ، مقاومة هيجان الغضب وما إلي ذلك.

الفرق بين الحلم وكظم الغيظ : قال الإمام الغزالي -رحمه الله-: "اعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم أي تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلي كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلي مجاهدة شديدة ، ولكنه إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا فلا يهيج الغيظ ، وإن هاج فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي وهو دلالة كمال العقل واستيلائه وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتدأه التحلم وكظم الغيظ تكلف"^(٦).

قال أبو حاتم : "الحلم منه ما هو سجية ومنه ما هو تجربة وتكلف ، ومنه ما هو مركب منهما معا ، وأول الحلم المعرفة ثم التثبت ثم العزم ثم التصبر ثم الصبر ثم الرضا ثم الصمت والإغضاء ، وما الفضل إلا للمحسن إلي المسئ ، وأما من أحسن إلي المحسن وحلم عمن لم يؤذه فليس ذلك بحلم ، ولا إحسان. والناس علي ضروب ثلاثة ، رجل أعز منك ، ورجل أنت أعز منه ، ورجل سواك في العز ، فالتجاهل علي من أنت أعز منه لؤم ، وعلي من هو أعز منك جنف ، وعلي من هو مثلك هراش كهراش الكلبين ، ونقار كنقار الديكين ، ولا يفترقان إلا عن الخدش والعقر والهجر ، ولا يكاد يوجد التجاهل وترك التحالم إلا من سفيهين ولقد أحسن الذي يقول:

ما تم حلم ولا علم بلا أدب ولا تجاهل في قوم حليمان

وما التجاهل إلا ثوب ذي دنس وليس يلبسه إلا سفيهان

(١) لسان العرب لابن منظور ، ٩٨٠/٢ - باب الحاء.

(٢) التعريفات للرجاني ، ص ١٢٥ ، باب الحاء.

(٣) التعريفات للرجاني ، ص ١٢٥.

(٤) التوقيف علي مهمات التعاريف ، لمحمد عبد الرؤوف المناوي ، ص ٢٩٤.

(٥) المفردات في غريب القرآن ، للراغب ، ص ١٢٩ ، كتاب الحاء.

(٦) إحياء علوم الدين ، الغزالي ، ١٧٦/٣.

فالواجب علي العاقل إذا غضب واحتد أن يذكر كثرة حلم الله عنه مع تواتر انتهاكه محارمه ، وتعديه حرماته ثم يحلم ولا يخرج غيظه إلي الدخول في أسباب المعاص ، والحلم علي ضربين: أحدهما : ما يرد علي النفس من قضاء الله من المصائب التي امتحن الله بها عباده فيصبر العاقل تحت ورودها ويحلم عن الخروج إلي ما لا يليق بأهل العقل. والآخر: ما يرد علي النفس بضد ما تشتهي من المخلوقين فمن تعود الحلم فليس بمحتاج إلي التصبر لاستواء العدم والوجود عنده^(١).

ولقد ذكر الإمام الماوردي في كتابه "أدب الدنيا والدين" أسباب الحلم الباعثة علي ضبط النفس ، حيث قال : الحلم من أشرف الأخلاق ، وأحقها بنوي الألباب ، لما فيه من سلامة العرض ، وراحة النفس ، واجتلاب الحمد ، وحد الحلم : ضبط النفس عند هيجان الغضب ، وهذا يكون عن باعث وسبب ، وأسباب الحلم الباعثة علي ضبط النفس عشرة أحدها: الرحمة للجهال ، وذلك من خير يوافق رقة ، وقد قيل في منثور الحكم : من أوكد أسباب الحلم رحمة الجهال ، الثاني: القدرة علي الانتصار ، وذلك من سعة الصدر ، وحسن الثقة ، وقد قال بعض الحكماء : ليس من الكرم عقوبة من لا يجد امتناعا من السطوة ، وقال بعض البلغاء : أحسن المكارم عفو المقتدر ، وجود المقتدر ، الثالث: من أسبابه الترفع عن السباب ، وذلك من شرف النفس ، وعلو الهمة ، كما قال الحكماء : شرف النفس أن تحمل المكاره ، كما تحمل المكارم ، الرابع: الاستهانة بالمسيء ، وذلك عن ضرب من الكبر والإعجاب ، كما حكي عن الأحنف أن رجلاً أكثر من سبه وهو لا يجيبه ، فقال: والله ، ما منعه من جوابي إلا هواني عليه ، الخامس: الاستحياء من جزاء الجواب ، وهذا يكون من صيانة النفس ، وكمال المروءة ، لذا قيل: احتمال السفه خير من التحلي بصورته ، والإغضاء عن الجاهل خير من مشاكلته ، وقيل أيضا : ما أفحش حلیم ، ولا أوحش كريم ، السادس: التفضل علي السباب ، فهذا يكون من الكرم ، وحب التآلف ، وقد حكي عن الأحنف بن قيس^(٢) أنه قال: ما عاداني أحد قط ، إلا أخذت في أمره بإحدى ثلاث خصال : إن كان أعلي متي عرفت له قدره ، وإن كان دوني ترفعت عنه ، وإن كان نظيري تفضلت عليه ، السابع: استكفاف الساب ، وقطع السباب ، وهذا يكون من الحزم ، وقد قال الشعبي^(٣): ما أدركت أمة فأبرها ، ولكن لا أسب أحدا فيسبها ، ولذلك قيل : في إعراضك صون أعراضك ، الثامن: الخوف من العقوبة علي الجواب ، وهذا يكون من ضعف النفس ، وربما أوجبه الرأي ، واقتضاه الحزم ، وقد قيل : الحلم حجاب الآفات ، التاسع: من أسبابه الرعاية ليد سالفه وحرمة لازمة وهذا يكون من الوفاء ، وحسن العهد ؛ ولذلك قيل:

(١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء لـ أبي حاتم البستي ، ص ٢٠٩ : ٢١٤ بتصرف.

(٢) الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين سيد تميم وأحد العظماء الدهاء الفصحاء الشجعان ، يضرب به المثل في الحلم ، ولد في البصرة وأدرك النبي ولم يره ، شهد الفتوح في خراسان واعتزل الفتنة يوم الجمل ، توفي سنة ٧٢ هـ - ٦٩١ م ، أنظر الأعلام ٢٧٦/١ ، التاسعة ١٩٩٠)

(٣) عامر بن شرحبيل الهمداني ، أبو عمر ، علامة عصره ، رأى علي -كرم الله وجهه- وصلى خلفه ، توفي سنة أربع ومائة وقيل غير ذلك (سير أعلام النبلاء ٢٩٤/٤ وما بعدها).

أكرم الشيم أدهاها للذمم ، العاشر: المكر ، وتوقع الفرص الخفية ، وهذا يكون من الدهاء ، وقد قيل : من ظهر غضبه قل كيده ، وقال بعض الأدباء : غضب الجاهل في قوله ، وغضب العاقل في قوله ، وغضب العاقل في فعله وقيل : إذا سكت عن الجاهل فقد أوسعته جوابا ، وأوجعته عقابا .

فهذه عشرة أسباب تدعو إلي الحلم ، وبعض الأسباب أفضل من بعض ، وليس إذا كان بعض أسبابه مفضولا به ، ما يقتضي أن تكون نتيجته من الحلم مذمومة ، وإنما الأولي بالإنسان أن يدعو للحلم أفضل أسبابه ، وإن كان الحلم كله فضلا ، وإن عرا عن أحد هذه الأسباب كان ذلا ولم يكن حلما^(١). فالحلم صفة حميدة ، وخصلة جليلة اتصف بها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام. فلقد وصف المولي -
خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام بالحلم في معرض استغفاره لأبيه ثم إعراضه عن الاستغفار عند ما تبين له أنه عدو لله ﷻ. قال تعالى: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم"^(٢) "أي وما استغفر إبراهيم لأبيه بقوله: "واغفر لأبي إنه كان من الضالين"^(٣) أي وفقه للإيمان واهده إلي سبيله -إلا عن موعدة وعدها إياه بقوله: "سأستغفر لك ربي"^(٤) أي لا أملك لك هداية ولا نجاة ، وإنما أملك أن ادعوا الله لك. وقد وفي إبراهيم بما وعد ، ولم يكن إلا وفيما كما شهد الله له بقوله: "وإبراهيم الذي وفى"^(٥) "فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه" أي لم يزل إبراهيم يستغفر لأبيه حتي مات فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ، وقيل : تبين له ذلك بوحي من الله فتبرأ منه ومن قرابته وترك الاستغفار له ، إذ هذا مقتضي الإيمان كما قال تعالى : "لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو حملاهم"^(٦). ثم بين السبب الذي حمل إبراهيم علي الوعد بالاستغفار لأبيه مع شكاسته له وسوء خلقه كما يؤذن بذلك قوله: "لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا"^(٧) "إن إبراهيم لأواه حليم" أي إن إبراهيم لكثير المبالغة في خشية الله والخضوع له ، صبور علي الأذى والصفح عن زلات غيره عليه"^(٨) فقوله ﷻ مثنيا علي خليله "إن إبراهيم لأواه حليم" تعليل لاستغفاره لأبيه قبل علمه وتبينه بإصراره علي الكفر قال صاحب الكشف: "إنه لفرط ترحمه ورقته ، وحلمه ، كان يتعطف علي أبيه الكافر ، ويستغفر له مع شكاسته عليه ، وقوله "لأرجمنك"^(٩).

(١) أدب الدنيا والدين لأبي الحسين علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي ص ٢٤٥ : ٢٤٨ بتصرف ، حققه وعلق عليه المرحوم مصطفى السقا ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان .

(٢) سورة التوبة ، الآية : ١١٤ .

(٣) سورة الشعراء ، الآية : ٨٦ .

(٤) سورة مريم ، من الآية : ٤٧ .

(٥) سورة النجم ، الآية : ٣٧ .

(٦) سورة المجادلة ، من الآية : ٢٢ .

(٧) سورة مريم ، من الآية : ٤٦ .

(٨) تفسير المراغي ، ١١ / ٣٧ - ٣٨ .

(٩) تفسير الكشف ، ٢ / ٣٠٢ .

بينما ذهب "صاحب المنار" إلى أن هذه الجملة تعليل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه ، فقال : "هذه الجملة المؤكدة بوصف إبراهيم -عليه السلام- بالمبالغة في خشية الله والخشوع له ، وبالحلم والثبات في أموره كلها ، تعليل لامتناعه عن الاستغفار لأبيه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عز وجل" (١) وقول صاحب الكشف هو الأقرب للصواب ، والمناسب لسياق الآية. ولقد "اختلف أهل التأويل في الأواه ، فقال بعضهم : هو الدعاء ، وقال آخرون: بل هو الرحيم ، وقال آخرون: بل هو الموقن ، وقال آخرون هي كلمة بالحبشية معناها: المؤمن ، وقيل: هو الذي يكثر تلاوة القرآن ، وقيل: هو من التأوه ، وقيل: الفقيه ، وقيل: المتضرع الخاشع" (٢).

قال ابن جرير : وأولي الأقوال في ذلك عندي بالصواب القول الذي قال أنه الدعاء ، ووجه الصواب عنده : أن الله ذكر ذلك ، ووصف به إبراهيم خليله -صلوات الله عليه- بعد وصفه إياه بالدعاء والاستغفار لأبيه ، فقال: "وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه" وترك الدعاء والاستغفار له ، ثم قال: إن إبراهيم لدعاء ربه شاك له حليم عمن سبه وناله بالمكروه ، وذلك أنه صلوات الله عليه ، وعد أباه بالاستغفار له ، ودعا الله له بالمغفرة عند وعيد أبيه إياه ، وتهده له بالشتيم بعد ما رد عليه نصيحته في الله ، وقوله: "أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليا" فقال له صلوات الله عليه "سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيّا" وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى أأنا أكون بدعاء ربي شقيّا" فوفي لأبيه بالاستغفار له حتي تبين له أنه عدو لله ، فوصفه الله بأنه دعاء لربه حليم عمن سفه عليه" (٣) أما الحليم فمعناه كما قال الشيخ رشيد رضا: "هو الذي لا يستغفره الغضب ولا يعبت به الطيش ، ولا يستخفه الجهل أو هوي النفس ، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء العجلة في كل من الرغب والرهب" (٤). وقال الإمام السعدي : "حليم" أي ذو رحمة بالخلق ، وصفح عما يصدر منهم إليه من الزلات لا يستغفره جهل الجاهلين ، ولا يقابل الجاني عليه بجرمه ، فأبوه قال له "لأرجمنك" وهو يقول له "سلام عليك سأستغفر لك ربي" (٥). وقال الإمام ابن عطية: "حليم" معناه صابر محتمل عظيم العقل ، والحلم العقل" (٦) وزاد الإمام الواحدي : هو الذي لم يعاقب أحدا إلا في الله ، ولم ينتصر من أحد إلا لله" (٧) "روي أنه عليه السلام كان من حلمه أنه إذ آذاه الرجل من قومه قال له : هداك الله تعالى" (٨) فقد كان خليل الله إبراهيم -

(١) تفسير المنار ، ٦٠/١١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، لابن جرير الطبري ، ٤٧/١١ : ٥١ ، دار الفكر.

(٣) جامع البيان ، ٥١/١١ : ٥٢ بتصرف.

(٤) تفسير المنار ، ٦١/١١ ، وينظر تفسير المراغي ، ٣٥/١١.

(٥) تيسير الكريم الرحمن ، ص ٣٥٣.

(٦) المحرر الوجيز ، ٩٢/٣.

(٧) تفسير الواحدي ، ٤٨٤/١.

(٨) روح المعاني ، ٣٥/١١ بتصرف.

عليه السلام - حلّما رفيقا لا يعاجل أحدا بالعقوبة إذا أذاه ، ألم يقل الحق - ﷻ في موضع آخر من كتابه العزيز: "إن إبراهيم حلّيم أوّاه منيب"^(١) فهذا التثاء من المولي لخليله إبراهيم قد ورد في معرض الحديث عن مجادلة سيدنا إبراهيم في شأن إهلاك قوم لوط ، ولقد ذكر القرآن الكريم هذه المجادلة في سورة العنكبوت قال تعالى: "ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكوا أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين { قال إن فيها لوطا }"^(٢) فسأل خليل الله كيف يهلكون أهل هذه القرية وفيهم من يذكر اسم الله فيها وعلي رأسهم نبي الله سيدنا لوط عليه السلام ؟ فأجابت الملائكة: "نحن أعلم بمن فيها لننجيه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين"^(٣) فهذه الآيات قد وضحت سبب جدال سيدنا إبراهيم وهو علمه بوجود مؤمنين مع الكافرين في قرية واحدة ، وأيضا السبب هو ما ورد في الآية التي نحن بصددنا وهو حلمه ﷻ وتأوّه وإنابته برجوعه إلى الله في جميع أموره.

قال الإمام الرازي: "قوله تعالى: "إن إبراهيم حلّيم أوّاه منيب" مدح عظيم من الله تعالى لإبراهيم ، أما الحلّيم فهو الذي لا يتعجل بمكافأة غيره ، بل يتأنّى فيه فيؤخر ويعفو ومن هذا حاله فإنه يحب من غيره هذه الطريقة ، وهذا كالدلالة علي أن جداله كان في أمر متعلق بالحلم وتأخير العقاب ثم ضم إلي ذلك ماله تعلق بالحلم وهو قوله "أوّاه منيب" لأن من يستعمل الحلم في غيره فإنه يتأوّه إذا شاهد وصول الشدائد إلي الغير ، فلما رأي مجيئ الملائكة لأجل إهلاك قوم لوط عظم حزنه بسبب ذلك وأخذ يتأوّه عليه فلذلك وصفه الله تعالى بهذه الصفة ، ووصفه أيضا بأنه منيب لأن من ظهرت فيه هذه الشفقة العظيمة علي الغير فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلي الله في إزالة ذلك العذاب عنهم ، أو يقال : إن كان لا يرضي بوقوع غيره في الشدائد فألا يرضي بوقوع نفسه فيها كان أولي ولا طريق إلي صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة والإنابة فوجب فيمن هذا شأنه أن يكون منيبا"^(٤).

هذا ! ولم يصف الله - ﷻ - أحدا بصفة الحلم إلا سيدنا إبراهيم في هاتين الآيتين ، وسيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام في قوله: "فبشرناه بغلام حلّيم"^(٥). وإنما وصف بهذا الوصف عندما عرض عليه أبوه الذبح فقال: "يا أبت أفتل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين" قال الإمام أبو السعود - رحمه الله -: قوله : فبشرناه بغلام حلّيم صريح في أن المبرر به عين ما استوهبه عليه السلام ولقد جمع فيه بشارات ثلاث ، أنه غلام وأنه يبلغ أوان الحلم وأنه يكون حلّما ، وأي حلم يعادل حلمه ﷻ حين عرض عليه أبوه الذبح فقال: "يا أبت أفتل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين"^(٦) فقلما يوجد في الصبيان

(١) سورة هود ، الآية: ٧٥.

(٢) سورة العنكبوت ، الآية: ٣١ - وجزء من الآية: ٣٢.

(٣) سورة العنكبوت ، من الآية ٣٢.

(٤) مفاتيح الغيب للرازي ، المجلد التاسع ، ٢٥/١٨.

(٥) سورة الصافات ، الآية: ١٠١.

(٦) إرشاد العقل السليم ، ١٩٩/٧.

سعة صدر وحسن صبر وإغضاء في كل أمر ... عرض عليه أبوه وهو مراهق الذبح فقال: "ستجديني إن شاء الله من الصابرين" فما ظنك به بعد بلوغه ، وقيل : ما نعت الله نبياً بالحلم لعزة وجوده غير إبراهيم وابنه عليهما السلام^(١) ووصف سيدنا إبراهيم وولده إسماعيل -عليهما السلام- بصفة الحلم دون غيرهما من الأنبياء لا يعني عدمها في غيرهم ، فجميع الأنبياء قد عرفوا بالحلم ، فرسل الله من لدن آدم -عليه السلام- إلي خاتم الأنبياء والمرسلين محمد -ﷺ- يحملون نفوساً سمحة وقلوباً رحيمة ، ليضربوا لقومهم المثل العليا في الحلم ، والعفو والسماحة ، والرحمة ، ملقنين بإهانات أعدائهم إياهم وراء ظهورهم فلم يوجهوا إليها كبير اهتمام. ولقد ساق القرآن الكريم قصص وسير هؤلاء الأنبياء مبنيًا ما كانوا عليه من عفو كريم وصفح جميل ، من هؤلاء الرسل...

سيدنا هود -عليه السلام- : لقد أرسل الله تعالى هوداً إلي قومه ومتعه بدرجة عالية من العفو والحلم ، فحينما دعاهم إلي التوحيد وجهوا إليه كل سخيف من القول وكل منكر من الكلام "إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين"^(٢). فماذا قال لهم أمام هذه الشتائم الفاضحة وهذا السفه الوضيع؟ إنه لم يتعد الحلم مبيناً لهم نفي هذه الصفات القبيحة عنه شارحاً لهم أصل مهمته بالنسبة إليهم "يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين { } أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين"^(٣)... وهكذا نجد "أن شتائم الجاهل لم يطش لها حلم سيدنا هود -عليه السلام- وذلك لأن الشقة بعيدة بين رجل اصطفاه الله فهو في الذروة من الخير والبر ، وبين قوم سفهوا أنفسهم وتهاووا علي عبادة أحجار يحسبونها لفرط غباوتهم تضر وتنفع"^(٤).

سيدنا يوسف -عليه السلام- : ويأتي دور يوسف -عليه السلام- وحظه من هذا الخلق السمج إذا عرفنا ما صنع به أخوته من حقدهم عليه وطرحهم إياه في البئر وإحزانهم أباهم عليه حتي فقد بصره وحصل له ما حصل ، ثم ما لقي يوسف -عليه السلام- بسببهم من كيد النساء وإلقائه في السجن ، ثم يخرج من تلك المحن منتصراً ؛ فيمكنه الله من خزائن الأرض ، ويعلي من قدره ، ويرفع له ذكره ، فتتقابل الوجوه بالوجوه فيتهمونه بالسرقة في قولهم "إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل" وهم يقصدون يوسف فيسرهما في نفسه ولم يبيدها لهم صفحا وحلما ، ثم يعودون إليه مرة أخرى ، فماذا صنع يوسف معهم وقد أكمل الله له أمره وجمع له أهله؟ يقول لهم في حلم وصفح: "لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"^(٥) "لأنه حينئذ صفح وعفا عن جريمتهم وجريرتهم بما فعلوا من التوبة"^(٦).

(١) روح المعاني ، ١٢٧/٢٣ ، بتصرف.

(٢) سورة الأعراف ، الآية: ٦٦.

(٣) سورة الأعراف ، الآيتان: ٦٧-٦٨.

(٤) خلق المسلم ، ص ١٠٨-١٠٩ ، بتصرف.

(٥) سورة يوسف ، الآية: ٩٢.

(٦) إرشاد العقل السليم ، لـ أبي السعود ، ٣٠٥ / ٤.

سيدنا عيسى عليه السلام : وكذلك تمثل جانب الحلم والعفو والصفح في سيدنا عيسى عليه السلام - حينما قال في مناجاة ربه بشأن قومه وموقفهم منه: "إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم" (١) ولم يسأل ربه إهلاكهم رغم افتراءهم عليه الكذب والبهتان.

هذه بعض من النماذج لرسول الله -عليهم الصلاة والسلام- ذكرناها علي سبيل المثال لنبين ما كان عليه رسول الله من الحلم والعفو والصفح ، فالحلم فضيلة من الفضائل الحميدة ، فهو خير ما تحلي به العباد الزهاد ، وأفضل ما تمسك به الأتقياء العلماء.

وخير ما تمثل بهذا الخلق الرفيع سيد ولد آدم سيدنا محمد -ﷺ- فلقد من الله سبحانه علي العالم بهذا "النبي الكريم الحليم لكي يمسح آلامه ويخفف أحزانه ، ويعالج خطاياهم ويسعي في هدايتهم ، ويناصر الضعيف ، ويقاوم دونه قتال الأم عن صغارها ، ويحض شوكة القوي حتي يردده إنسانا سليم الفطرة ... فأرسل محمدا -ﷺ- وسكب في قلبه من العلم والحلم ، وفي خلقه من الإيناس والبر ، وفي طبعه من السهولة والرفق ، وفي يده من سخاوة والندى ما جعله أزكي عباد الله رحمة وأوسعهم عاطفة ، وأرحبهم صدرا ؛ ولذلك قال الله فيه: "قبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك" (٢) (٣).

"فلرسول الله -ﷺ- من الحلم- كما له من كل خلق- كماله ، يغضب للحق إذا انتهكت حرمانته وإذا غضب فلا يقوم لغضبه شيء حتي يهدم الباطل وينتهي ، وفيما عدا ذلك فهو أحلم الناس عن جاهل لا يعرف أدب الخطاب أو مسيء إلي رسول الله -ﷺ- نفسه يمكن إصلاحه ، أو منافق يتظاهر بغير ما يبطن ، وتجده حلمه دائما عجيبا يفوق الحد الذي يتصوره الإنسان ، خاصة وأن حلمه مع القدرة علي البطش والقتل والإرهاب ، إذا لا يشك أحد أن رسول الله -ﷺ- لو أمر بقتل إنسان لتبادر المئات إلي تنفيذ أمره ، بل إن بعضهم لا يحتاجون إلي الأمر بقدر ما يحتاجون إلي الإذن ، فلو أذن رسول الله -ﷺ- لطارت رؤوس عن كواهل أصحابها قبل أن ينهوا كلامهم ، ولكن الرسول الحليم -ﷺ- كان يتحمل ويحلم حتي إنك لتراه الحلم مجسما" (٤) ... قال تعالى: "خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين" (٥) فهذه الآية تحت الرسول -ﷺ- علي العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين ، يذكر الإمام أبو السعود في هذا الشأن ما نصه: "بعدما عد من أباطيل المشركين وقبائحهم ما لا يطاق تحمله ، أمره -ﷺ- بجمع مكارم الأخلاق التي من جملة الإغضاء عنهم ... وأخذ العفو عن المذنبين وأن يأمر بالمعروف والجميل

(١) سورة المائدة ، الآية: ١١٨.

(٢) سورة آل عمران ، من الآية: ١٥٩.

(٣) خلق المسلم ، ٢١٠ ، بتصرف.

(٤) دراسات منهجية هادفة حول الأصول الثلاثة لله الرسول ، الإسلام لسعيد حوي ١٢٧/١ ، مكتبة وهبة.

(٥) سورة الأعراف ، الآية: ١٩٩.

المستحسن من الأفعال فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير ، وأن يعرض عن الجاهلين من غير ممارسة ، ولا يكافئهم بمثل أفعالهم^(١).

لذلك كان صلوات الله عليه وسلامه لا يعاجل أحدا بعقوبة بل كان حليما عفوا يحلم ويعفو عمن آذاه ؛ فلقد روي عن أبي هريرة ؓ "أن رجلا أتى النبي -ﷺ- يتقاضاه فأغلظ^(٢) فهم به^(٣) أصحابه ، فقال رسول الله ﷺ : "دعوه فإن لصاحب الحق مقالا ، ثم قال "أعطوه سنا مثل سنه" قالوا يا رسول الله : لا نجد إلا أمثلا من سنه ، فقال : "أعطوه فإن من خيركم أحسنكم قضاء"^(٤).

فانظر وتأمل رسول الله -ﷺ- وهو أشرف خلق الله أجمعين وخير ولد آدم أجمعين يحلم ويصفح عمن أغلظ عليه في الطلب قائلا : "أعطوه فإن لصاحب الحق مقالا" بالعظمت وحلمه ﷺ ، قال ابن حجر رحمه الله : "في هذا الحديث حسن خلق النبي -ﷺ- وعظم حلمه وتواضعه وإنصافه ، ويؤخذ منه أن من عليه دين لا ينبغي له مفاجأة صاحب الحق ، وأن من أساء الأدب علي الإمام كان عليه التعزيز بما يقتضيه الحال إلا أن يعفو صاحب الحق"^(٥).

وعن أنس بن مالك ؓ قال : "كنت أمشي مع النبي ﷺ وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتي نظرت إلي صفحة عاتق النبي -ﷺ- قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليهِ فضحك ثم أمر له بعتاء"^(٦)... قال ابن حجر : "وفي هذا الحديث : بيان حلمه -ﷺ- وصبره علي الأذى في النفس والمال والتجاوز علي جفاء من يريد

(١) إرشاد العقل السليم ، لـ أبي السعود ، ٣/ ٣٠٨ بتصرف.

(٢) يحتمل أن يكون الإغلاظ بالتشديد في المطالبة ، ويحتمل أن يكون لغير ذلك ويكون صاحب الدين كافرا ، فقد قيل إنه كان يهوديا والأول أظهر (فتح الباري ، ٥/ ٦٩).

(٣) أي أراد أصحاب النبي -ﷺ- أن يؤذوه بالقول أو الفعل لكن لم يفعلوا أدبا مع النبي ﷺ (فتح الباري ، ٥/ ٦٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الوكالة ، باب الوكالة في الديون ٢/ ٦٨٥ ، كما أخرجه في كتاب الإستقراض وأداء الديون والحجر والتقليس ، باب استقراض الإبل ٢/ ٧١٢ ، وأخرجه أيضا في نفس الكتاب ، باب هل يعطي أكبر من سنه ، وباب حسن التقاضي ٢/ ٧١٣ ، كما ذكره في كتاب الهيئة وفضلها باب الهيئة المقبوضة وغير المقبوضة والمقسومة وغير المقسومة وقد وهب النبي -ﷺ- وأصحابه لهوازن ما غنموا منهم وهو غير مقسوم ٢/ ٧٨٦ ، كما أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب المساقاة باب من استسلف شيئا فقصي خيرا منه وخيركم أحسنكم قضاء ، ٣/ ١٢٢٥.

(٥) فتح الباري ، ٥/ ٧٠ ، بتصرف.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فرض الخمس ، باب ما كان النبي -ﷺ- يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ونحوه ، ٢/ ٩٧٠ ، كما أخرجه في صحيحه ، كتاب اللباس باب البرود والحيرة والشملة وقال خباب : شكونا إلي النبي ﷺ وهو متوسد بردة له ، ٤/ ١٨٥٥ ، كما أخرجه في صحيحه أيضا ، كتاب الأدب ، باب التبسم والضحك وقالت فاطمة عليها السلام ، أسر إلي النبي -ﷺ- فضحكت ، وقال ابن عباس : إن الله هو أضحك وابكي ٤/ ١٩٢١-١٩٢٢ ، كما أخرجه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب إعطاء من سأل بفحش وغلظة ، ٢/ ٧٣٠-٧٣١.

تألفه علي الإسلام ، وليتأسى به الولاية بعده في خلقه الجميل من الصفح ، والإغضاء والدفع بالتالي هي أحسن^(١).

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قسم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قسمة فقال رجل من الأنصار: والله ما أراد محمد بهذا وجه الله ، فأتيت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فأخبرته فتمعر^(٢) وجهه وقال: "رحم الله موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر"^(٣). قال ابن حجر: "في هذا الحديث دليل على أن أهل الفضل قد يغضبهم ما يقال فيهم مما ليس فيهم ومع ذلك يتلقون ذلك بالصبر والحلم ، كما صنع النبي -صلى الله عليه وسلم- اقتداء بموسى -عليه السلام-"^(٤).

وعن أنس بن مالك -رضي الله عنه- أن يهودية أتت النبي -صلى الله عليه وسلم- بشاة مسمومة فأكل منها فجئى بها فقيل : ألا تقتلها؟ قال: "لا" فما زالت أعرفها في لهوات^(٥) رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فتأمل حلم النبي -صلى الله عليه وسلم- يعفو ويصفح عمن يهم بقتله.

وعن عائشة قالت: "دخل رهط من اليهود علي رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقالوا: السام عليكم ، قالت عائشة: ففهمتها فقلت : وعليكم السام واللعنة ، قالت : فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "مهلا يا عائشة إن الله يحب الرفق في الأمر كله" فقلت: يا رسول الله! أو لم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "قد قلت وعليكم"^(٦) قال ابن حجر: "الرفق : بكسر الراء وسكون الفاء بعدها قاف هو لين الجانب بالقول والفعل ، والأخذ بالأسهل ، وهو ضد العنف"^(٧) ومعني قوله -صلى الله عليه وسلم- " في الأمر كله " أي: " في أمر الدين والدنيا حتي في معاملة المرء نفسه ويتأكد ذلك في معاشرة من لا بد للإنسان من معاشرته كزوجته ، وخادمه وولده فالرفق محبوب مطلوب مرغوب ، وكل ما في الرفق من الخير ففي العنف مثله من الشر"^(٨).

فتأمل رد النبي علي أهل الكتاب ، فهو لم يرد برد يسوؤهم بل قال لهم فقط "وعليكم" ، قال الإمام النووي رحمه الله: "هذا من عظيم خلقه -صلى الله عليه وسلم- وفيه حث علي الرفق والصبر والحلم وملاطفة الناس ما لم

(١) فتح الباري ، ٥٢٢/١٠ .

(٢) تغير من الغضب لفتح الباري ٤٩٠/١٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب من أخبر صاحبه بما يقال فيه ، ١٩١٣/٤ ، كما أخرجه مطولا في كتاب فرص الخمس ، باب ما كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ٩٧١/٢ .

(٤) فتح الباري ، ٥٢٩/١٠ .

(٥) لهوات : بفتح اللام جمع لهاة وهي سقف الفم أو اللحم المشرفة علي الحلق ، وقيل هي أقصى الحلق ، وقيل ما يبدو من الفم عند التبسم ، فتح الباري ٢٧٤/٥ .

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الهبة وفضلها باب قبول الهدية من المشركين ، ٧٨٩/٢ .

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الرفق في الأمر كله ، ١٩٠٥/٤ ، كما أخرجه مسلم ، كتاب السلام ، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام وكيف يرد عليهم رقم الحديث (٢١٦٥) ، ١٧٠٦/٤ .

(٨) فتح الباري ، ٤٦٤/١٠ .

(٩) فيض القدير ، ٢٨٧/٢ .

تدع حاجة إلي المخاشنة^(١) وهذا ما يجب علينا في جميع تعاملاتنا حتي ولو كان حلمنا علي من هو علي غير ملة الإسلام ما لم تنتهك حرمانات الله -ﷻ- ولهذا فلقد وصف الله -ﷻ- عباد الرحمن بصفات عدة وجعل منها حلمهم علي الجاهلين ، قال تعالى: "وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما"^(٢) أي: "إذا سفه عليهم الجاهل بالقول السيئ ، لم يقابلوهم بمثله ، بل يعفون ويصفحون ، ولا يقولون إلا خيرا"^(٣) وقوله قالوا "سلاما" يعني "قالوا سدادا ، أو ردوا معروفا من القول ، وقال الحسن البصري: "قالوا سلام عليكم ، إن جهل عليهم حلموا"^(٤).

فالحلم صفة من الصفات الرشيدة ، وخصلة من الخصال الحميدة ، يجب التحلي به لاسيما في هذا العصر الذي نعيش فيه" ففي هذا العصر لهث الناس خلف الحياة المادية وتركوا التعاليم الربانية ، إلا من رحم ربي ، ولذا ظهر في هذا الشطر من الدهر الأمراض الخطيرة ، والعلل الوبيلة التي لم تظهر في أسلافنا ، التي كان أكثرها بسبب الغضب ، وعدم امتلاك زمام الأمور بقوة ، فكم من بيت خرب بسبب الغضب؟ وكم من امرأة طلقت بسبب غضب زوجها؟ وكم من رجل شل بسبب الغضب؟ وكم من أولاد شردوا بسبب الغضب"^(٥).

من هذا المنطلق كان المصطفى -ﷺ- يدعو إلي الحلم ، وينهي عن المعاجلة بالعقوبة والغضب ، فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: قال رسول الله ﷺ: "ليس الشديد بالصرعة"^(٦) إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب"^(٧).

وهذا الحديث فيه فضل الحلم ، وفيه دليل علي أن الحلم كتمان الغيظ ، وأن العاقل من ملك نفسه عند الغضب ، لأن العقل في اللغة: ضبط الشيء وحبسه ، ومنه قيل: عقال الناقة ومعناه في الشريعة: ملك النفس وصرفها عن شهواتها المردية لها ، وحبسها عما حرم الله ، وقد جعل رسول الله -ﷺ- للذي يملك نفسه ويغلبها من القوة ما ليس للذي يغلب غيره ، وفي هذا دليل علي أن مجاهدة النفس أصعب مرارا وأفضل من مجاهدة العدو والله أعلم"^(٨) وهذا الحديث من فصيح الكلام وبليغه ، "لأنه لما كان الغضبان

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٤٥/١٤ .

(٢) سورة الفرقان ، من الآية ٦٣ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ، ٣٢٥/٣ .

(٤) تفسير القرآن العظيم لـ ابن كثير ، ٣٢٦/٣ .

(٥) مقدمة كتاب "الحلم" لابن أبي الدنيا ، ص ١٣ بتصرف .

(٦) بضم الصاد المهملة وفتح الراء : الذي يصرع الناس كثيرا بقوته والهاء للمبالغة في الصفة ، والصرعة بسكون الراء بالعكس وهو من يصرعه غيره كثيرا . فتح الباري ، ٥٣٥/١٠ .

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب لقول الله "الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين" ١٩٢٨/٤ ، كما أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة والآداب باب "فضل من يملك نفسه عند الغضب وبأي شيء يذهب الغضب ، ٢٠١٤/٤ ، رقم الحديث (٢٦٠٩) .

(٨) التمهيد لابن عبد البر ، ٣٢٢/٦ - ٣٢٣ .

بحالة شديدة من الغيظ وقد ثارت عليه من الغضب فقهرها بحلمه ، وصرعها بثباته ، وعدم عمله بمقتضي الغضب كان كالصرعة الذي يصرع الرجال ولا يصرعونه^(١).

وروي أيضا عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رجلا قال للنبي -صلى الله عليه وسلم-: أوصني ، قال: "لا تغضب" فردد مرارا ، قال: "لا تغضب"^(٢)... فهي وصية بأن يملك الإنسان نفسه عند هيجان الغضب ، ولا يستعجل علي أحد بالعقوبة ، بل يتمهل ويتريث ، قال أحد العلماء: "خلق الله الغضب من النار وجعله غريزة في الإنسان ، فمهما قصد أو نوزع في غرض ما ، اشتعلت نار الغضب وثار حتى يحمر الوجه والعينان من الدم ، لأن البشرة تحكي لون ما وراءها ، وهذا إذا ما غضب علي من دونه واستشعر القدرة عليه ، وإن كان ممن فوقه تولد منه انقباض الدم من ظاهر الجلد إلي جوف القلب فيصفر اللون حزنا ، وإن كان علي النظير تردد الدم بين انقباض وانبساط فيحمر ويصفر ، ويترتب علي الغضب تغير الظاهر والباطن ، كتغير اللون ، والرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال من غير ترتيب ... واستحالة الخلقة حتي لو رأي الغضبان نفسه في حال غضبه لكان غضبه حياء من قبح صورته ، واستحالة خلقة ، هذا كله في الظاهر ، وأما الباطن فقبحه أشد من الظاهر ، لأنه يولد الحقد في القلب والحسد وإضرار السوء علي اختلاف أنواعه ، بل أولي شيء يقبح منه باطنه ، وتغير ظاهره ثمرة تغير باطنه ، وهذا كله أثره في الجسد ، وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم والفحش الذي يستحي منه العاقل ويندم قائله عند سكون الغضب ، ويظهر أثر الغضب أيضا في الفعل بالضرب أو القتل ، وإن فات ذلك بهرب المغضوب عليه رجع إلي نفسه فيمزق نفسه ، ويلطم خده ، وربما سقط صريعا ، وربما أغمي عليه ، وربما كسر الأنية ، وضرب من ليس له في ذلك جريمة ، ومن تأمل هذه المفاصل عرف مقدار ما اشتملت عليه هذه الكلمة اللطيفة من قوله -صلى الله عليه وسلم- "لا تغضب" من الحكمة واستجلاب المصلحة في درء المفسدة مما يتعذر إحصاؤه ، والوقوف علي نهايته"^(٣)... قال الإمام النووي: لم يزد في الوصية علي "لا تغضب" مع تكراره الطلب ، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب ، وما ينشأ منه"^(٤).

فالغضب جمرة من نار لا بد من إخمادها قبل اشتعالها ؛ ولذلك أعد عز وجل جنة عرضها السماوات والأرض للمتقين الموصوفين بكظم الغيظ والعفو عن الناس ، قال عز من قال: "وسارعوا إلي مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين" {الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين}^(٥) فهذه الآية قد عدت صفات المتقين ومن تلك الصفات كظم الغيظ وهو ما عبر عنه بقوله تعالى "والكاظمين الغيظ" ، والكظم هو: "الإمساك علي ما في

(١) شرح الزرقاني ، علي موطأ الإمام مالك ، ٣٢٧/٤ بتصرف يسير .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأدب ، باب الحذر من الغضب ، ١٩٢٨/٤ .

(٣) فتح الباري ، ٥٣٧/١٠ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، ١٦٣/١٦ .

(٥) سورة آل عمران ، الآيتان: ١٣٣-١٣٤ .

النفس علي صفح أو غيظ"^(١) قال الإمام الألوسي: "أصل الكظم شد رأس القربة عند امتلائها ، ويقال فلان كظيم أي ممتلئ حزنا"^(٢) وقال النحاس: "الكظم في اللغة أن يحبس الغيظ ويقال كظم البعير علي جرتيه إذا ردها في حلقه ، ويقال للمتلئ حزنا وغما كظيم ومكظوم"^(٣) فالكظم إذن: بمعني الحبس ، وأما الغيظ فهو : هيجان الطبع عند رؤية ما ينكر"^(٤) قال الراغب: "الغيظ هو: الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه"^(٥). وقال ابن عطية: "الغيظ أصل الغضب وكثيرا ما يتلازمان ، ولذلك فسر بعض الناس الغيظ بالغضب ، وليس تحرير الأمر كذلك ، بل (الغيظ) فعل النفس لا يظهر علي الجوارح ، والغضب حال لها ، معه ظهور في الجوارح ، ولهذا جاز إسناد الغضب إلي الله تعالى إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم ولا يسند إليه تعالى غيظ"^(٦) وزاد الألوسي في الفرق بينهما: "أن الغضب يتبعه إرادة الانتقام البتة ولا كذلك الغيظ"^(٧). والمعني : "أن هؤلاء إذا ثار بهم الغيظ كظموه بمعني كتموه فلم يعملوه"^(٨).

قال الإمام السعدي رحمه الله: "أي إذا حصل لهم من غيرهم أذية توجب غيظهم وهو امتلاء قلوبهم من الحق الموجب للانتقام بالقول أو الفعل ، هؤلاء لا يعملون بمقتضي الطباع البشرية بل يكظمون ما في قلوبهم من الغيظ ويصبرون عن مقابلة المسيء إليهم"^(٩) قال رسول الله ﷺ: "من كظم غيظا وهو يقدر علي أن ينفذه دعاه الله علي رؤوس الخلائق يوم القيامة حتي يخيره في أي الحور شاء"^(١٠).

ولم يقتصروا علي كظمهم للغيظ بل أيضا يعفون عن ظلمهم ، قال تعالى "والعافين عن الناس" ، قال الألوسي: "أي المتجاوزين عن عقوبة من استحقوا مؤاخذته إذا لم يكن في ذلك إخلال بالدين وقيل عن المملوكين إذا أساءوا والعموم أولي"^(١١) وقال ابن عطية رحمه الله: "القول القائل علي أن المراد بالناس"

(١) التوقيف علي مهمات التعاريف، ص ٦٠٤.

(٢) روح المعاني ، ٥٨/٤.

(٣) معاني القرآن للنحاس ، ٤٧٧/١-٤٧٨.

(٤) روح المعاني ، ٥٨/٤.

(٥) المفردات في غريب القرآن ، ص ٣٦٨ كتاب الغين.

(٦) المحرر الوجيز ، ٥٠٩/١.

(٧) روح المعاني ، ٥٨/٤.

(٨) تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ، ٤٠٥/١.

(٩) تيسير الكريم الرحمن ، ص ١٤٨.

(١٠) أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة والرفائق والورع عند رسول الله ، ٦٥٦/٤ ، رقم الحديث ٢٤٩٣ ، عن سهل بن معاذ بن أسس الجهني عن أبيه ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، كما أخرجه في كتاب البر والصلة ، باب في كظم الغيظ ، ٣٧٢/٤ ، رقم الحديث ٢٠٢١ ، كما أخرجه أبو داود في سننه ، كتاب الأدب باب من كظم غيظا ، ٢٤٨/٤ ،

(١١) روح المعاني ، ٥٨/٤.

الممالك قول حسن علي وجه المثال ، إذ هم الخدمة فهم مذنبون كثيرا ، والقدرة عليهم متيسرة ، وإنفاذ العقوبة سهل ؛ فلذلك مثل هذا المفسر به^(١) والقول ما ذهب إليه الألوسي بالعموم ، لأن هذا ما تقتضيه الآية الكريمة وهو العفو عن كل من أساء دون تخصيص ، قال السعدي رحمه الله: ويدخل في العفو عن الناس العفو عن كل من أساء إليك بقول أو فعل ، والعفو أبلغ من الكظم ، لأن العفو ترك المؤاخذه مع السماحة عن المسيئ ، وهذا إنما يكون ممن تحلي بالأخلاق الجميلة وتخلي عن الأخلاق الرزيلة ، وممن تاجر مع الله وعفا عن عباد الله رحمة بهم ، وإحسانا إليهم ، وكراهة لحصول الشر عليهم ، وليعفو الله عنه ويكون أجره علي ربه الكريم لا علي العبد الفقير ، كما قال تعالى: "فمن عفا وأصلح فأجره على الله"^(٢) وقال القرطبي: "العفو عن الناس أجل ضررب فعل الخير ؛ حيث يجوز للإنسان أن يعفو حيث يتجه حقه ، وكل من استحق عقوبة فترك له فقد عفي عنه"^(٣) وقال الدكتور وهبه الزحيلي: "تلك منزلة ضبط النفس التي تدل علي سعة العقل ورجاحة الفكر وقوة الإرادة ومثانة الشخصية ، وهو أرقى من كظم الغيظ ، إذ ربما كظم المرء غيظه علي الحقد والضغينة"^(٤) ... روي عن النبي ﷺ -أنه قال: "من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ، وليعط من حرمه ، وليصل من قطعه"^(٥) فالعفو عمن أساء من مكارم الأخلاق ، فيجب التحلي به.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: "وإذا ما غضبوا هم يغفرون"^(٦) أي "يتجاوزون ويحلمون عمن ظلمهم ، قيل نزلت في عمر حين شتم بمكة ، وقيل في أبي بكر حين لامه الناس علي إنفاق ماله كله وحين شتم فحلم ، فعن علي -قال اجتمع لأبي بكر مال مرة فتصدق به كله في سبيل الخير فلامه المسلمون وخطأه الكافرون ؛ فنزلت: "فما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون" إلي قوله: "وإذا ما غضبوا هم يغفرون" ، وقال ابن عباس: "شتم رجل من المشركين أبا بكر فلم يرد عليه فنزلت ، وهذه من محاسن الأخلاق ، يشفقون علي ظالمهم ، ويصفحون لمن جهل عليهم ، ويطلبون بذلك ثواب الله تعالى وعفوه"^(٧) قال ابن كثير: "سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس

(١) المحرر الوجيز ، ١/٥١٠ بتصرف.

(٢) سورة الشوري ، من الآية: ٤٠.

(٣) تيسير الكريم الرحمن لـ السعدي ، ص ١٤٨.

(٤) تفسير الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ، المجلد الثاني ، ١٣٣/٤ ، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، ١٤١٣هـ — ١٩٩٣م.

(٥) التفسير المنير ، ٣/٨٨.

(٦) أخرجه الحاكم في مستدركه ، كتاب التفسير ، ٢/٢٩٥ ، عن أبي بن كعب ، وقال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، ط ، دار الفكر بيروت ، ١٣٩٨ هـ — ١٩٧٨ م.

(٧) سورة الشوري ، من الآية: ٣٧.

(٨) تفسير القرطبي ، المجلد الثامن ، ٢٤/٢٥ — ٢٥ ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٨هـ — ١٩٨٨ م.

وليس سجيّتهم الانتقام من الناس" (١) فهم قد تخلّقوا بمكارم الأخلاق ومحاسن الشيم فصار الحلم لهم سجية وحسن الخلق لهم طبيعة حتي إذا أغضبهم أحد بمقالة أو فعالة كظموا ذلك الغضب فلم ينفذوه بل غفروه ولم يقابلوا المسيئ إلا بالإحسان والعفو والصفح ، فترتب علي هذا العفو والصفح من المصالح ودفع المفاسد في أنفسهم وغيرهم شيء كثير ؛ كما قال تعالى: "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم {} وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم" (٢) (٣).

وإنما خص الغضب بلفظ الغفران ؛ "لأن استيلاءه علي طبع الإنسان وغللبته عليه شديدة ، فلا يغفر عند ثورة الغضب إلا من شرح الله صدره وخصه بمزية الحلم" (٤) قال ابن عطية: "قوله تعالى "وإذا ما غضبوا هم يغفرون" حض علي كسر الغضب والتدرب في إطفائه إذ هو جمر من جهنم وباب من أبوابها" (٥).

فالعصب خلق شديد علي النفس ومقاومته أشد ، ولذلك كان الحلم من الخصال التي يحبها الله عز وجل. فلقد روي أن رسول الله ﷺ قال للأشج عبد القيس: "إن فيك لخصلتين يحبهما الله الحلم والأناة" (٦). كما روي أيضا ، أن رجلا قال : يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إلي ، وأحلم عنهم ويجهلون علي ، فقال: "لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم المل" (٧) ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت علي ذلك" (٨) هكذا كان للحلم فوائد كثيرة ومنافع عديدة فهو اسم من أسمائه عز وجل ، وخصلة تحلي بها الأنبياء والمرسلون عليهم الصلاة والسلام.

ولقد ورد العديد من الآثار والأقوال عن الحلم وأهميته ، منها: "قال لقمان لابنه: ثلاثة لا يعرفون إلا في ثلاثة مواطن ؛ لا يعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا في الحرب إذا لقي الأقران ، ولا أخاك إلا عند حاجتك إليه" (٩) وقال عمر رضي الله عنه : "تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم" (١٠) وقال علي

(١) تفسير القرآن العظيم ، لـ ابن كثير ، ١١٩/٤ .

(٢) سورة فصلت ، الآيتان : ٣٤-٣٥ .

(٣) تيسير الكريم الرحمن ، لـ السعدي ، ص ٧٦٠ .

(٤) فتح القدير للشوكاني ، ٥٤٠/٤ .

(٥) المحرر الوجيز ، ٣٩/٥ .

(٦) سبق تخريجه وشرحه ، في التائي .

(٧) بفتح الميم الرماد الحار ، والمعني : كأنما تطعمهم الرماد الحار وهو تشبيه بما يلحقهم من الألم بما يلحق أكل الرماد الحار من الألم ، ولا شيء علي المحسن ، بل ينالهم الإثم العظيم في طبيعته وإدخالهم الأذى عليه لصحيح مسلم بشرح النووي ١١٥/١٦ .

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه ، كتاب البر والصلة ، باب صلة الرحم وتحريم تقطيعها ، ١٩٨٢/٥ .

(٩) حلية الأولياء لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني ، ٣٨٩/٧ ط ، دار الكتاب العربي بيروت ، ١٤٠٥ ، الطبعة الرابعة .

(١٠) إحياء علوم الدين ١٧٨/٣ ، ط دار المعرفة بيروت ، لبنان ، ١٤٠٢-١٩٨٢م .

ﷺ: "ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ولكن الخير أن يكثر علمك وأن يعظم حلمك ، وأن تباهي الناس بعبادة ربك فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله"^(١) وقال عمر بن عبد العزيز^(٢): "خمس إذا أخطأ القاضي فيهن خطئة كانت فيه وصمة: أن يكون فهما ، حلما ، عفيفا ، صليبا"^(٣) ، عالما سؤولا عن العلم"^(٤) وقال أبو حاتم ﷺ: "الواجب علي العاقل توطين النفس علي لزوم العفو عن الناس كافة ، وترك الخروج لمجازاة الإساءة ؛ إذ لا سبب لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان ولا سبب لنماء الإساءة وتهيجها أشد من الاستعمال بمثلها"^(٥) قال الإمام الشافعي في ديوانه:

يخاطبني السفيه بكل قبح
فأكره أن أكون له مجيبا
يزيد سفاهة فأزيد حلما
كعود زاده الإحراق طيبا^(٦)
وقال أيضا:
اعرض عن الجاهل السفيه
فما ضر بحر الفرات يوما
وقال أيضا:
فكل ما قال فهو فيه
أن خاض بعض الكلاب فيه^(٧)

إذا سبني نذل تزايدت رفعة
وما العيب إلا أن أكون مسابيه
ولو لم تكن نفسي علي عزيزة
لمكنتها من كل نذل تحاربه
ولو أنني أسعي لنفعي وجدتي
كثير التواني للذي أنا طالبه
ولكنني أسعي لأنفع صاحبي
وعار علي الشبعان إن جاع صاحبه^(٨)

(١) حلية الأولياء ، ٣٨٨/١٠ ، وينظر الإحياء ، ١٧٨/٣ .

(٢) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم ، خامس الخلفاء الراشدين ، وهو من ملوك الدولة مروانية الأموية بالشام ، توفي سنة ١٠١ هـ ، ٧٢٠ م (الأعلام ٥٠/٥ ، الثامنة).

(٣) بصاد مهملة وباء موحدة من الصلابة بوزن عظيم أي قويا شديدا يقف علي الحق ولا يميل مع الهوي ويستخلص حق المحق من المبطل ولا يجابيه ، فتح الباري ، ١٦٠/١٣ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب الأحكام ، باب متي يستوجب الرجل القضاء ، ٢٢٣٩/٥ .

(٥) روضة العقلاء ، ص ١٦٦ .

(٦) ديوان الشافعي المسمي الجواهر النفيس في شعر الإمام محمد بن إدريس ، ص ٢٠ ، إعداد وتعليق وتقديم ، محمد بن إبراهيم سليم ، مكتبة ابن سينا للنشر والتوزيع والتصدير .

(٧) ديوان الشافعي ، ص ١٥٦ .

(٨) ديوان الشافعي ، ص ١٩ .

"فعلي العبد أن يحلم علي أخطاء الناس ... وينظر إلي العصاة بعين الرحمة ... ويرى أن كل معصية في الناس وكأنها فيه ... والحكمة تقول: لا راحة في الدنيا ... ولا شفاعة في الموت ولا حيلة في الرزق ولا سلامة من الناس"^(١).

ويمكننا بعد ذكر الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة وبعض أقوال العلماء أن نستخلص فوائد الحلم وأهميته... وهي:

- ١- صفة من الصفات التي يحبها الله ورسوله ومن ثم من تحلي بها اكتسب محبة الله ورضوانه.
 - ٢- دليل كمال العقل وضبط النفس ، وامتلاك زمام الأمور .
 - ٣- تعمل علي انتشار التآلف والمحبة بين الناس .
 - ٤- صاحبها في الدرجات العلا وله عند الله الجزاء الأوفى .
- وغير ذلك من الفوائد التي قد يكتسبها الإنسان إذا تحلي بتلك الفضيلة.... ،
- ولا ننسي قبل كل هذا أن الحلم صفة من صفات الله -ﷻ- فهو الحليم بعباده الرحيم بهم لا يعاجل العصاة بالعقوبة بل يمهلهم ، ولذلك جدير بنا الحديث عن حلم الله -ﷻ- وإمهاله لعباده ، وهو حديثنا في الفصل السادس من هذا البحث إن شاء الله تعالى.

(١) الأسماء الحسني تجليات وأدعية بقلم عبد السلام محمد بدوي ، ص ١٤٥ ، ط دار المعارف.